القانون

27

استغل حاجة الناس إلى الإيمان لخلق أتباع طقوسيين

الحكم

في الناس رغبة جامحة للإيمان بشيءٍ مّا. فاجعل نفسك النقطة المركزية لهذه الرغبة بإعطائهم قضية، وإيماناً جديداً يتبعونه. ابقِ كلماتك غامضة ولكن ملأى بالوعود. وشدِّدْ على الحماس أكثر من العقلانية والتفكير الواضح. واعطِ أتباعك الجدد طقوساً يؤدونها. واطلب منهم أن يقدِّموا تضحيات بالنيابة عنك. وفي غياب الدين المنظم الصحيح والقضايا الكبرى، فإن نظامك الإيماني الجديد سيأتيك بسلطة لم يسمع بها أحد من قبل.

علم التدجيل، أو: كيف تخلق طقساً بخمس خطوات سهلة

عند بحثك، كما ينبغي، عن طرقٍ تُكْسِبُكَ أكبر قدرٍ من السلطة بأقل قدر من الجهد، فسوف تجد أن خلق أتباع طقوسيين هو واحدٌ من أكثر الطرق فاعلية. ذلك أن امتلاك عدد كبير من الأتباع يفتح كل أنواع الإمكانيات للخداع؛ فلن يقتصر الأمر على عبادتك من قبل هؤلاء الأتباع، بل إنهم سيدافعون عنك ضد أعدائك، وسيضطلعون طوعاً بالعمل على إغواء الآخرين بالانضمام إلى مذهبك الطقوسي الناشىء. وسيرفعك هذا النوع من السلطة إلى مملكة أخرى. فلا تعود مضطراً إلى الكفاح أو استخدام حيلة أو ذريعة لفرض إرادتك. لأنك تصبح معبوداً معصوماً من الخطإ.

وقد تظن أن خلق مثل هؤلاء الأتباع مهمة هائلة الضخامة، ولكنها في الواقع بسيطة نسبياً. ذلك أننا كبشر لدينا حاجة ماسة إلى الإيمان بشيء، أي شيء. وهذا يجعلنا شديدي السذاجة، فنحن، ببساطة، لا نتحمَّل فترات طويلة من الشك أو من الفراغ الناجم عن انعدام ما نؤمن به. فإذا أدليتَ أمامنا قضيّة جديدة، أو إكسيراً، أو مخططاً للإثراء السريع، أو آخِرَ تَوَجُّهٍ تقنيّ، أو حركة فنيَّة، فسنقفز من الماء دفعة واحدة لالتقاط الطعم. انظر إلى التاريخ: إن وقائع الاتجاهات والطقوس التي اجتذبت جموعاً كبيرةً من الأتباع يمكن أن تملأ مكتبة. وبعد بضعة عقود، أو سنوات، أو أشهر، فإنها (بصورة عامة) تبدو سخيفة، ولكنها في وقتها تبدو جذابة، ومتسامية، بل وسماويَّة.

فلنضع نصب أعيننا أن التوراة الحاليَّة مليئة بالتحريف والأكاذيب والأوهام والمبالغات، وأنها لم تدوّن إلاَّ في الأسر البابلي.

[المترجم]

لقد كان من مصلحة الدجال أن يتكاثر عدد الناس الميالين إلى التصديق، وأن يتضخم عدد مريديه إلى كتلٍ كبيرة تضمن لانتصاراته مجالاً أكبر باطراد. وقُدِّر لذلك أن يحدث أثناء انتشار شعبية العلم، من عصر النهضة وعلى امتداد القرون التالية، ومع النمو الهائل للمعرفة وانتشارها من خلال الطباعة في العصر الحديث، تزايد أيضًا جمهور أنصاف المتعلمين السذج المتحمسين، فرائس المشعوذ، فصاروا هم الأكثرية حقّاً.. بحيث أمكن إقامة سلطة حقيقية على أساس رغباتهم، وآرائهم، وتفضيلاتهم وما يرفضونه. وهكذا اتسعت إمبراطورية الدجال مع استعراض المعرفة الحديث؛ إذ أنه كان يعمل على أساس العلم؛ مهما قام بتحريفه كزعمه إنتاج الذهب بتقنية

وفي غمرة اندفاعنا للاعتقاد بأي شيء، فإننا نصنع قديسين وحالات إيمان من لا شيء. فلا تدع هذه السذاجة تذهب هدراً. واجعل نفسك موضع العبادة. واجعل الناس يشكِّلون طائفة طقوسية من حولك.

لقد أتقن الدجَّالون الأوروبيون الكبار فن تجميع المعجبين الطقوسيين حولهم في القرنين السادس عشر والسابع عشر. فقد كانوا يعيشون، كما نعيش نحن اليوم، في فترة تحوُّل انتقالية. وكان الدين المنظِّم آخذاً في الأفول، والعلم آخذاً في الصعود. وكان الناس يائسين في بحثهم المتشوِّق للالتفاف حول دعوة جديدة يؤمنون بها. وقد بدأ الدجَّالون كباعة متجولين للأكاسير الصحية، والمركَّبات الكيميائية التي تختصر الطريق إلى الثراء. وكانوا يتحرَّكون بسرعة من مدينة إلى أخرى فيركِّزون على المجموعات الصغيرة حتى يعثروا صدفةً على حقيقة من حقائق الطبيعة البشرية: وكلما كبرت المجموعة التي يحشدونها حول أنفسهم، كان ذلك يجعل ممارستهم للخداع أسهل.

وهكذا كان الدجال يوقف نفسه على منصّة خشبيَّة عالية (ومن هنا جاءت عبارة «الواقف على المنبر») كوصف للدجالين. وتحتشد الجموع حول الدجَّال. والناس في ظروف التجمّع هذه يكونون أكثر تأثراً بالعواطف، وأقل قدرة على المحاكمة العقلية. ولو خاطبهم الدجال بشكل انفرادي، فلربما وجده كلٌّ منهم سخيفاً. ولكنهم عندما يضيعون وسط الجموع، فإنهم يقعون في المزاج الجماعي للانتباه المشدود المشدوه. ويصبح من المستحيل عليهم أن يجدوا مسافة يبتعدون بها عن المعمعة ليرتابوا. وتختفي أية نواقص أو عيوب في أفكار الدجال في غمرة حماس الجموع. فالعاطفة الثائرة والحماس يكتسحانهم كالعدوى، بل يكون ردّ فعلهم عنيفاً ضد أي شخص يجرؤ على نشر بذور الشك. وعن طريق الدراسة الواعية المتعمدة لهذه الحركة على مدى عقود من التجربة، وكذلك التكيّف للأوضاع عند حدوثها، أتقن الدجَّالون علم

مستعارة من الكيمياء، أو أنواع البلسم العجيبة التي يزعم أنها من أدوات الطب، فلم يعد يستطيع أن يتوجه بخطابه إلى جمهور جاهل تمامًا. إذ إن الأمين يحميهم منطقهم البدهي العفوي البسيط من أباطيله، فأفضل جمهوره هم أنصاف المتعلمين، الذين يحل محل منطقهم البسيط شيء من المعلومات المشوهة، ممَّن يكونون قد التقوا بالعلم وشيء من التربية والتعليم في وقتٍ ما، ولو باختصار وبدون نجاح... فغالبية الجمهور من عامة الناس تميل دائمًا إلى التعجب من الأشياء الغامضة. وكان ذلك صحيحًا بصورة خاصة في فتراتٍ تاريخية معينة، عندما بدت أسس الحياة الآمنة وقد اهتزّت. ولم يعد من الممكن الاعتماد على القيم القديمة، الاقتصادية والروحية التي ظلت طويلاً مقبولة كحقائق يقينية مؤكدة. فعندئذ تضاعف عدد المغفلين المصدّقين للدجّالين والمشعوذين. وهؤلاء المغفّلون هم الذين وصفهم أحد الإنكليز في القرن السابع عشر بأنهم «قتلةُ أنفسهم».

قوة الدجَّال

غريت دي فرانسيسكو،

1939

اجتذاب الجمهور والاحتفاظ به مشدوداً، وقولبته إلى أتباع، وتحويل الأتباع إلى طائفة طقوسية.

وقد تبدو أحابيل الدجَّالين اليوم طريفة وغريبة، ولكن لا يزال بيننا ألوف من الدجَّالين يستخدمون الطرق المجرَّبة ـ الصحيحة ـ التي حَسَّنها أسلافهم قبل قرون، فلم يغيِّروا سوى أسماء الأكاسير، وحدَّثوا مظهر طقوسهم وجدَّدوه. ونحن نجد هؤلاء الدجَّالين المحدَّثين في كل ميادين الحياة ـ في التجارة، والأزياء، والسياسة، والفن. ولعل كثيرين منهم يتبعون تقاليد الدجل دون أن تكون لديهم أية معرفة بتاريخه. ولكنك تستطيع أن تكون أكثر منهجية وتعمّداً. فاتبع ـ ببساطة ـ الخطوات الخمس التي أتقنها أسلافنا الدجَّالون على مدى السنين لتكوين الطوائف الطقوسية.

الخطوة الأولى: أبقِ الأمر غامضاً؛ أبق الأمر بسيطاً: لكي تخلق طائفة طقوسية، يتعيَّن عليك أولاً أن تجتذب الاهتمام. وينبغي أن لا تفعل ذلك بالأعمال، التي هي واضحة وسهلة القراءة، ولكن من خلال الكلمات التي هي ضبابية وخدَّاعة. ويجب أن تتضمَّن خطبك ومحادثاتك ومقابلاتك الأولى عنصرين هما: الوعد من جهة بشيء عظيم وتحويلي، والغموض الكلِّي من جهة أخرى. فهذا المزيج سيحرِّك كل أنواع الأحلام الغائمة في نفوس مستمعيك، الذين يربطون الأمور بطرائقهم الخاصة، ويرون ما يريدون أن يروه فقط.

ولجعل غموضك جذَّاباً، استخدم كلمات ذات طنين عظيم، ولكن معناها غائم، كلمات مليئة بالحرارة والحماس. فالعناوين البرَّاقة للأشياء البسيطة قد تساعد، وكذلك استخدام الأرقام وخلق كلمات جديدة لمفاهيم غامضة. فهذا كله يخلق عنك الانطباع بأن لديك معرفة متخصصة، ويضفي على أقوالك قشرة من العمق. وبالأسلوب نفسه، حاول أن تجعل موضوع طقوسك جديداً وطازجاً، بحيث لا يفهمه إلاَّ قليلون. فإذا طبَّقت ذلك بشكل صحيح، فإن مزيج الوعود الغامضة

والمفاهيم الغائمة والجذّابة معاً، والحماس الناري سوف تثير نفوس الناس، وبذلك تتشكّل حولك مجموعة.

وإذا تحدَّثت بغموض مفرط فلن تكون لك مصداقية. ولكن الأخطر من ذلك أن تكون دقيقاً. فإذا أوضحت للناس بالتفصيل الفوائد التي سيكسبونها من اتباع مذهبك، فسوف يتوقعون منك أن ترضيهم.

وينبغي أن تكون دعوتك بسيطة، فذلك من مستلزمات غموضها. فمعظم مشاكل الناس لها أسباب معقَّدة: كالاضطراب العصبي الوظيفي العميق الجذور، والعوامل الاجتماعية المترابطة فيما بينها، وهي جذور تعود إلى الزمن الماضي، والكشف عنها صعب للغاية. غير أن قليلين فقط لديهم الصبر على التعامل مع ذلك كله؛ فمعظم الناس يريدون أن يسمعوا أن حلاً بسيطاً سيعالج مشاكلهم. إن القدرة على تقديم مثل هذا الحل ستعطيك سلطة عظيمة وتخلق لك أتباعاً. وبدلاً من شروح الحياة الحقيقية المعقَّدة، عُدْ إلى الحلول البدائية لأسلافنا، للمعالجات الشعبية الريفية العتيقة، لأنواع الترياق الغامض الشافي لجميع العلل.

الخطوة الثانية: ركّز على البصريّ والحسّيّ أكثر من الفكري:

وعندما يبدأ الناس في التجمُّع حولك، فسوف يظهر خطران: هما السأم والتشكك. فالسأم سيجعل الناس يذهبون إلى مكانٍ آخر؛ أما التشكك فسيتيح لهم مسافة من الابتعاد تجعلهم يفكّرون بشكل عقلاني في أي شيء تعرضه عليهم، مما يقشع الضباب الذي كنتَ قد خلقته بتفنن، فتنكشف أفكارك على حقيقتها. فأنت إذن بحاجة إلى تسلية السَّئِمين، وإبعاد المتشكِّكين الساخرين.

وأفضل طريقة للقيام بذلك هي من خلال المسرح أو الأدوات التي من نوعه. أحط نفسك بالبذخ، ودوِّخ أتباعك بالروعة البصرية واملأ أعينهم بالمشهد الآسر الأخّاذ. لأن ذلك لن يقتصر على منعهم من رؤية سخف أفكارك، والثقوب في نظامك الاعتقادي، بل إنه سيجتذب المزيد من الاهتمام، والمزيد من الأتباع. تَوَجَّهْ إلى حواسهم جميعاً. استخدم

البوم التي كانت إلهة

ذات ليلة مظلمة غارت نجومها كانت هناك بوم تجلس على غصن شجرة بلوط. فحاول خُلْدان أرضيان أن يتسلّلا بهدوء دون أن يحسّ بهما البوم: «أنتما!». فارتجفا في خوف وذهول، وسألا: «من؟» إذ أنهما لم يستطيعا أن يصدقا أن من الممكن أن يراهما أحد في ذلك الظلام الكثيف. فقالت البوم: «أنتما الاثنان!» فهرع الخلدان ليخبرا مخلوقات الحقل والغابة أن البوم أعقل الحيوانات وأعظمها، لأنها تستطيع أن ترى في الظلام، ولأنها تستطيع أن تجيب على كل سؤال. فقال الكاتب [طائر كبير يقتات بالزواحف]: «سنرى حقيقة هذا الأمر». وقام بزيارة البوم في ليلة مظلمة أخرى، وسألها: «كم مخلبًا أخفي؟» فقالت البوم: «اثنين». وكان ذلك صحيحًا. فسأل الكاتب: «هل تستطيعين أن تعطيني تعبيرًا آخر لكلمة (أي) أو (بعبارة أخرى)»، فقالت البوم: «ذلك هو...»، فسارع الكاتب عائدًا إلى الحيوانات الأخرى، وأبلغها بأن البوم فعلاً أعظم وأحكم حيوان في العالم، لأنها تستطيع أن ترى في الظلام، ولأنها تستطيع أن تجيب عن كل سؤال. فسأل ثعلب أحمر: «وهل تستطيع أن ترى

البخور للرائحة، والموسيقى الهادئة للسمع، والخرائط والرسوم البيانية الملوَّنة للعين. بل لعلك تدغدغ الذهن، ربما باستخدام أدوات أو أجهزة تكنولوجية جديدة تعطي مذهبك الطقوسي مسحة علمية كاذبة ــ ما دمت لا تجعل أي شخص يفكِّر. واستخدم ما هو غريب ــ من الثقافات النائية، والعادات الغريبة ــ لخلق تأثيرات مسرحية. ولجعل أكثر الأمور تفاهة وابتذالاً تبدو علامات أو إرهاصات بشيء فوق العادة وخارج على المألوف.

الخطوة الثالثة: اقتبس أشكال الدين المنظَّم لهيكلة المجموعة: وعند نموّ أتباعك المذهبيين، يحين الوقت لتنظيمهم كطائفة طقوسية. فأوجد طريقة متسامية ومريحة. فلطالما كانت للأديان المنتظمة سلطة لا تُنازَع على أعداد كبيرة من البشر، ولا تزال لها مثل هذه السلطة حتى في عصرنا المفروض أنه علمانيّ. وحتى إذا كان بريق الدين قد خبا إلى حدٍّ مّا، فإن أشكاله لا يزال يرنّ فيها صدى النفوذ والسلطة. فمن الممكن استغلال التداعيات الشامخة والمقدَّسة للدين المنظّم استغلالاً لا نهاية له. فاخلق طقوساً لأتباعك؛ ونظِّمهم في مراتب تجعل لهم صفوفاً ودرجات من القداسة، وامنحهم أسماءً وألقاباً تتردَّد فيها أصداء المعاني الدينية الإضافية؛ واطلب منهم تضحيات تملأ خزائنك وتزيد سلطتك. ولتأكيد الطبيعة شبه الدينية لما تجمعه، تحدَّث وتصرَّف كأنك نبيّ. فأنت في آخر الأمر لستَ دكتاتوراً، بل كاهن، ومرشد روحي، وحكيم، وعرَّاف، أو أي كلمة أخرى تخفي سلطتك الحقيقية في ضباب الدين بشكل فضفاض.

الخطوة الرابعة: موِّه مصادر دخلك: وبعد تنامي جماعتك وقيامك بهيكلتها على شكل طائفة طقوسية، وشروع خزينتك في الامتلاء بأموال أتباعك، فإن عليك أن لا تبدو أبداً متعطشاً للمال والسلطة التي يأتي بها. بل يجب عليك في هذه اللحظة بالذات أن تموِّه مصادر دخلك.

إن أتباعك يريدون أن يؤمنوا بأنهم إذا اتبعوك فإن جميع أنواع

في النهار أيضًا؟» فأكدت هذا السؤال زغبةٌ (حيوان من القوارض شبيه بالسنجاب) وكلبٌ فرنسيٌّ صغير وقالا: «نعم، وهل ترى في النهار أيضًا؟» فضحكت كل المخلوقات على هذا السؤال السخيف، وهجموا على الثعلب الأحمر وأصدقائه وطردوهم من المنطقة. ثم أرسلوا إلى البوم رسولاً طلب منها أن تكون زعيمتهم. وعندما ظهرت البوم بين الحيوانات كانت الشمس تشرق بسطوع في عزّ الظهيرة. فأخذت تسير ببطء شديد، مما أعطاها مظهر الوقار الشديد. فراحت تحملق فيما حولها بعينين واسعتين مبحلقتين، مما أعطاها هالةً من الأهمية الرهيبة. فصرخت دجاجة من صخرة بليموث: «إنها إلهة!» فالتقط الآخرون الصرخة ورددوا: «إنها إلهة». وتبعوا البوم أينما ذهبت. وعندما بدأت تصطدم بالأشياء، اصطدموا بالأشياء أيضًا. وأخيرًا جاءت إلى شارع عريض وراحت تحملق في منتصفه وكل المخلوقات الأخرى تتبعها. وفي الحال، لاحظ صقر كان مرافقًا للموكب شاحنة قادمة نحوهم بسرعة خمسين ميلاً في الساعة، فأبلغ الكاتب، الذي أبلغ البوم بدوره: «هناك خطر قادم» فسألت البوم: «وذلك هو؟...» فأخبرها الكاتب به، وسألها:

«ألست خائفة؟» فسألت البوم: «من؟» وكانت هادئة؛ لأنها لم تستطع أن ترى الشاحنة. فصرخت المخلوقات كلها مرة أخرى: «إنها إلهة!» وكانت ما تزال تردد هذا الهتاف عندما دهستها الشاحنة، فأصيبت بعض الحيوانات بجروح فقط، غير أن الغالبية، بما فيها البوم، قتلوا.

العبرة: إنك تستطيع أن تخدع أغلب الناس أغلب الوقت.

كرنفال ثوربر

جيمس ثوربر، 1894-1961

الأشياء الطيِّبة ستقع في حجورهم. وبإحاطة نفسك بالفخفخة تصبح برهاناً حياً على سلامة نظامك الاعتقادي. فلا تكشف قطّ عن كون ثروتك قد جاءت في الحقيقة من جيوب أتباعك. وبدلاً من ذلك، اجعلها تبدو وكأنها ناجمة عن صحة أساليبك وصدق معاملتك. فأتباعك سيقلِّدون كل حركة من حركاتك اعتقاداً بأنها ستجلب لهم النتائج نفسها. وسوف تعميهم حماستهم في هذا التقليد عن الطبيعة التدجيلية لثروتك.

الخطوة الخامسة: أقم حركية «نحن» ضد «هم»: فإذا صارت جماعتك كبيرة ومزدهرة، ومغناطيساً يجتذب المزيد من الجزئيات. غير أنك إن لم تكن حريصاً، فإن الجمود سيبدأ في التسلُّل إلى صفوف حركتك، ويبدأ الوقت والسأم في سلب جماعتك جاذبيتها. ولإبقاء أتباعك متحدين، يجب عليك عندئذٍ أن تفعل ما فعلته الأديان وأنظمة الاعتقاد جميعاً من قبل.

أولاً، تأكَّد من كون أتباعك يؤمنون بأنهم جزء من نادٍ خصوصيّ مقصور عليهم وحدهم. توحِّدهم رابطة من الأهداف المشتركة. ومن ثم ـ لتقوية هذه الرابطة ـ اصنع أو افتعل فكرة وجود عدو مراوغ مصمِّم على تدميركم، وأن هناك قوة من غير المؤمنين مستعدّة لعمل أي شيء لإيقافكم. ويمكن وصف أي شخص خارجيّ يحاول فضح الطبيعة الدَّجَلية لنظامك الاعتقادي بأنه عضو في تلك القوة المراوغة المنحرفة.

فإن لم يكن لك أعداء فاخترع عدوّاً. لأنك إذا قدَّمْتَ لجماعتك دميةً من قش يوجِّهون إليها ردود أفعالهم فإنهم سوف يتماسكون ويتلاحمون. فلديهم دعوتك ليؤمنوا بها، والمارقون ليدمِّروهم.

مراعاة القانون

المراعاة الأولى:

في سنة 1653، زعم رجل من ميلانو في السابعة والعشرين من عمره يدعى فرانسيسكو جوزيبي بوري، أنه شاهد رؤيا، وراح يطوف في

المدينة يخبر الناس جميعاً أن المَلَكَ الكبير ميكائيل قد تراءى له وأعلن أنه قد اختير ليكون القائد العام لجيش البابا الجديد، الذي سيكون من شأنه أن يسيطر على العالَم ويعيد إليه حيويته. كما كشف المَلَكُ بأن بوري صارت لديه قدرة على رؤية ما في نفوس الناس، وأنه سوف يكتشف حجر الفلاسفة قريباً ـ وهي مادة بحث الناس عنها طويلاً، ويمكنها تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب ـ . وقد تأثر الأصدقاء والمعارف الذين سمعوا بوري يشرح لهم رؤاه بعد أن شهدوا التغيّر الذي طرأ عليه. ذلك أنه كان قد خصَّص حياته في السابق لمعاقرة الشراب، ومعاشرة النساء، وتعاطي المَيْسِر. فتخلَّى عن ذلك كله، وانغمس في دراسة الكيمياء والحديث عن التصوُّف ومسائل السحر والتنجيم.

وكان ذلك التحوُّل مفاجئاً ويشبه المعجزة، وكانت كلمات بوري مليئة بالحماس إلى درجة أنه بدأ يخلق أتباعاً. ولسوء الحظ بدأت محاكم التفتيش الإيطالية تلاحظه كذلك ـ وكانت تقيم الدعاوى على كل من يتعاطى السحر والتنجيم ـ وهكذا غادر إيطاليا وراح يجوب أوروبا، من النمسا إلى هولندا، مخبراً الجميع بأن كل من يتبعه فسوف يُمْنَحُ كل الغبطة. وكان يجتذب أتباعاً حيثما أقام. وكانت طريقته بسيطة: إذ يتحدَّث عن رؤياه، التي تنامت بدخول المزيد من التفاصيل المنقحة إليها شيئاً فشيئاً. وعَرَضَ أن «ينظر إلى داخل» روح كل من يؤمن به ويصدِّقه (وكان هؤلاء كثيرين). فكان يبدو وكأنه في غيبوبة، ويحدِّق في التابع الجديد عدة دقائق، ثم يزعم أنه قد شاهد روح ذلك الشخص، ومدى تنوّره، وإمكانيته للوصول إلى العَظَمَة الروحية. فإن كان فيما يراه شيء واعد، ضمّ ذلك الشخص إلى نظام أتباعه الآخذ في التنامي. . وكان ذلك شيئاً مشرفاً له حقاً.

وكان في نظامه الطقوسي ست درجات، يعيَّن التلاميذ في كلٍّ منها حسبما يَلْمَحُ بوري في أرواحهم. وبالعمل والإخلاص الكلّي للطائفة يمكنهم التخرج بالصعود إلى مرتبة أعلى. وكان بوري ـ الذي أسموه

«صاحب السموّ» و«الدكتور العالمي» ـ يطالبهم بأشدِّ الأيمان صرامةً أن يحلفوا على ملازمة الفقر. وكان واجبهم هو إعطاؤه كلَّ ممتلكاتهم وأموالهم. ولكنهم لم يكونوا يبالون بذلك، لأن بوري قال لهم: «سوف أصل قريباً في دراساتي الكيميائية إلى خاتمة سعيدة باكتشاف حجر الفلاسفة، وبهذه الوسيلة سيكون لدينا جميعاً كل ما نرغب فيه من الذهب».

ومع تعاظم ثروته بدأ بوري يغيِّر طراز حياته. فكان يستأجر أروع شقة في المدينة التي استقرَّ فيها مؤقتاً، ويؤثِّثها بأفخر الأثاث والرياش والتحف التي بدأ يقتنيها. وكان يطوف شوارع المدينة في عربة مرصَّعة بالمجوهرات تجرها ستة خيول سوداء رائعة. ولم يكن يبقى مدة مفرطة الطول في مكان واحد؛ وعندما اختفى، قائلاً إنه يملك أرواحاً أخرى سيضمّها إلى قطيعه، لم يزد غيابُه سمعَتَه إلاَّ تنامياً. وصار مشهوراً، رغم أنه في الواقع لم يفعل شيئاً واحداً مادياً ملموساً على الإطلاق.

لكي يصبح المرء مؤسسًا لدين جديد، يتعين عليه أن يكون معصومًا من الناحية النفسية في معرفته لنمط معين من أوساط الناس الذين لم يدركوا بعد أنهم جماعة تعيش معًا.

فردريك نيتشه

1900–1844

ومن جميع أنحاء أوروبا، جاء العميان، والمقعدون واليائسون لزيارة بوري، لأن الشائعات قد انتشرت بأن لديه قوىً شافية. ولم يكن يطلب أجراً على خدماته، مما جعله يبدو أكثر روعة وغرابة، بل لقد زعم بعضهم أنه قد اجترح معجزات علاجية في هذه المدينة أو تلك. وعن طريق الإشارة إلى منجزاته بالتلميح فقط، شجع خيال الناس لتضخيمها إلى أبعاد خيالية. وعلى سبيل المثال فإن ثروته جاءت في الواقع من المبالغ الطائلة التي كان يجمعها من مجموعته المختارة من التلاميذ أو الأتباع الأغنياء على نحو متزايد؛ ومع ذلك فقد افترض الناس أنه في الحقيقة قد أتقن استخدام حجر الفلاسفة. واستمرَّت الكنيسة تطارده وتستنكر ممارسته للهرطقة والسحر. وكان ردّ بوري على هذه الاتهامات هو الصمت المهيب، مما عزَّز سمعته وجعل أتباعه أكثر تحمساً في عاطفتهم المؤيِّدة له، لاعتقادهم أن العظماء فقط هم الذين يتعرَّضون للاضطهاد، رغم كل شيء. فكم من الناس فهموا السيد

الناس بسطاء العقول، وتسيطر عليهم حاجاتهم المباشرة، إلى درجة أن الرجل المخادع يجد دائمًا كثيرين ممَّن هم على استعداد للانخداع.

نيقولو ماكيافيللي

1527–1469

المسيح في زمانه؟ لم يكن بوري مضطراً لقول كلمة واحدة ــ وهكذا راح أتباعه يسمُّون البابا المسيح الدجَّال.

وراحت سلطة بوري تنمو وتنمو، إلى أن غادر مدينة أمستردام ذات يوم (حيث كان قد استقر لفترة) وهرب سراً بمبالغ هائلة من الأموال والمجوهرات الماسيّة التي كان قد اؤتمن عليها (وكان قد زعم بأنه يستطيع إزالة العيوب من قطع الماس بقوة ذهنه الموهوب). أما الآن فقد صار هارباً مطارداً. وأخيراً لحقت به محاكم التفتيش. فقضى السنوات العشرين الأخيرة من حياته سجيناً في روما. ولكن الإيمان بقواه السحرية والتنجيمية كان عظيماً إلى درجة أنه ظلَّ إلى يوم وفاته يتلقَّى زيارات من الأثرياء المؤمنين به، وكانت من بينهم كريستينا، ملكة السويد. فزوَّدوه المال والمواد وبذلك أتاحوا له أن يستمر في بحثه عن حجر الفلاسفة المراوغ.

التفسير

يبدو أن بوري كان، قبل تشكيل طائفته، قد عثر بالصدفة على اكتشاف عام. فقد تعب من حياة الغواية، فقرَّر التخلِّي عنها وتكريس نفسه للسحر والتنجيم الذي كان من اهتماماته الأصيلة. ولكن لا بدَّ أنه قد لاحظ أنه عندما أشار إلى التجربة الصوفية (بدلاً من الإرهاق الجسدي) كمصدر لتحوُّل حياته، فقد أراد الناس من كل الطبقات أن يسمعوا منه المزيد. وأدرك السلطة التي يمكن أن يكسبها إذا عزا التغير إلى شيء خارجيّ وغامض، فذهب إلى أبعد من ذلك برؤاه المصطنعة. وكلما كانت الرؤية أعظم، وزادت الأضاحي التي راح يطلبها، كانت قصته تبدو أكثر إثارة للإعجاب والتصديق.

تذكَّر: لا يهتم الناس بالحقيقة عن أسباب التغيّر. فهم لا يريدون أن يسمعوا أنه جاء من العمل الشاق، أو من أي شيء عادي مبتذل كالإرهاق أو السأم أو الاكتئاب؛ بل هم شديدو التعطُّش للإيمان بشيء حالم، أو من خارج هذا العالم. إنهم يريدون أن يسمعوا عن الملائكة،

معبد الصحة

[في أواخر ثمانينيات القرن الثامن عشر]، كان الدجال الإسكتلندي جيمس غراهام... يكسب أتباعًا كثيرين وثروة عظيمة في لندن... وكان [غراهام] يجري استعراضًا لتقنية علمية كبيرة. وفي عام 1772... كان قد زار فيلادلفيا، حيث لقي بنيامين فرانكلين واهتم بتجاربه في الكهرباء، ويبدو أن تلك التجارب قد ألهمته أن يضع جهازًا في «معبد الصحة»، وهو مؤسسة خرافية فتحها في لندن لبيع أكاسيره... وفي الغرفة الرئيسة التي كان يستقبل فيها مرضاه، كانت تقف «أكبر مضخة هواء في العالم» لتساعده في «تحقيقاته الفلسفية» في المرض، ومعها أيضًا «موصّل معدني مذهل»، وهي قاعدة مذهبة مزخرفة تحيط بها أنابيب وقوارير من «الأثير وغيره من جوهر المستقطرات»... وحسب رواية ج. إيتّيموسر الذي نشر تاريخًا للسحر في عام 1844 في لايبزغ، فقد كان بيت غراهام «... يجمع بين ما هو مفيد وما هو سار. فقد كانت الأبهة الباذخة معروضة في كل مكان. وحتى في الباحة الخارجية، كما أكد شاهد عيان، كان يبدو أن الفن، والاختراع والثراء قد تجمَّعت عن آخرها. فعلى الجدران الجانبية في الغرف، كان هناك

والتجارب الخارجة عن الجسد. فأشبع رغباتهم. ولمِّح إلى المصدر الصوفي لتغيير شخصيّ. لفّ تجربتك بألوان أثيرية. وتكيَّف لحاجات الناس: فالمسيح يتعيَّن عليه أن يعكس رغبات أتباعه. **واستهدف** الأعالي دائماً. وكلما كان وهمك أكبر وأجرأ، كان ذلك أفضل.

المراعاة الثانية

في منتصف القرن الثامن عشر، انتشرت شائعة في صفوف المجتمع الراقي في أوروبا، أن طبيباً ريفياً سويسرياً يدعى مايكل شوباش، كان يمارس نوعاً مختلفاً من الطب: فيستعمل القوى العلاجية في الطبيعة لإحداث شفاءٍ أشبه بالمعجزة. وسرعان ما بدأ الأغنياء من جميع أنحاء القارة، بأمراضهم الخطيرة والطفيفة على حدٍّ سواء، يتقاطرون إلى قرية لانْغْنُو، حيث كان شوباش يعيش ويعمل، في جبال الألب. وأثناء صعودهم المجهد عبر الممرَّات الجبلية، كانوا يشاهدون أروع المناظر الطبيعية التي تستطيع أوروبا تقديمها. وما أن يصلوا إلى لانغنو حتى يكونوا قد شعروا بالتحوّل، وبأنهم آخذون في التماثل للشفاء.

وكان شوباش، الذي صار يعرف ببساطة باسم «الطبيب الجبلي»، يملك صيدلية صغيرة في البلدة. فصار هذا المكان مشهداً حاشداً تماماً: إذ راحت جموع من الناس من بلدان مختلفة تزدحم في الغرفة الصغيرة التي تصطف على جدرانها زجاجات ملوَّنة مليئة بالأدوية العشبية. وبينما كان معظم أطباء ذلك العصر يصفون تراكيب كريهة الرائحة تحمل عناوين لاتينية غير مفهومة (كتلك الأسماء التي لا تزال الأدوية تحملها على الأغلب)، كانت أدوية شوباش تحمل أسماء مثل «زيت الغبطة»، أو «قلب الوردة» أو «ضد الوحش» ــ وكان طعمها حلواً ولذيذاً.

وكان على زوَّار لانغنو أن ينتظروا بصبر ريثما تتاح لهم زيارة الطبيب الجبليّ، لأن نحو ثمانين رسولاً كانوا يصلون إلى الصيدلية كل يوم، حاملين قوارير من البول من جميع أنحاء أوروبا. فقد كان شوباش

وهج على شكل قوس ينبعث من ضوء كهربائي مصطنع؛ فكانت أشعة النجوم تومض، بينما وضعت قطع شفافة من الزجاج من كل الألوان باختيار بارع وذوق سليم. ويؤكد لنا شاهد العيان نفسه أن ذلك كله كان آسرًا ويرتقي بالخيال إلى أعلى مستوى». وكان الزوار يتلقون صحيفة مطبوعة عن قواعد العيش الصحي. وفي شقة آبوللو العظمى قد يشاركون في طقوس غامضة، تصحبها أناشيد مرتلّة: «التحية لك أيها الهواء الحيوي الأثيري! ويا أيها السحر المغناطيسيّ، تحية لك!» وبينما كانوا يحيّون سحر المغناطيسية، كانت النوافذ تعتّم لتُظهِر سقفًا مرصعًا بالنجوم و«إلهة وردية للصحة» جميلة في كوة... وكان معبد الصحة هذا يزدحم بالزوار في كل مساء. وصارت زيارته موضة، وكذلك تجربة السرير الرسمي الذي طوله اثنا عشر قدمًا، وهو «السرير النوراني العظيم» الذي يقال إنه شافٍ لجميع الأمراض... وكان هذا السرير، حسب رواية إينيموسر «يقف في غرفة رائعة، فيها أسطوانة تؤدي إليها من غرفة مجاورة لإيصال التيارات الشافية... وفي الوقت نفسه، كانت كل أنواع الروائح السارة، والأعشاب المقوية، والبخور الشرقي تُجْلبُ عبر أنابيب

يزعم أنه يستطيع تشخيص المرض من النظر ببساطة إلى عيِّنة من البول وقراءة وصف مكتوب للوجع (وكان بالطبع يقرأ الوصف المكتوب بعناية شديدة قبل أن يصف الدواء». وعندما كان يحصل على دقيقة من الفراغ (فقد كانت عيِّنات البول تستغرق الكثير من وقته)، كان يستدعي الزائر إلى مكتبه في الصيدلية، ثم يفحص عيِّنة بوله، موضحاً أن مظهره يدلّه على كل ما يريد معرفته. وكان يقول إن أهل الريف لديهم إحساس بهذه الأشياء ـ إذْ أن حكمتهم تأتي من عيشتهم البسيطة وحياتهم شبه الإلهية التي ليس فيها شيء من تعقيدات حياة الحَضَر في المدن ـ . وكانت هذه الاستشارة الشخصية تشمل أيضاً نقاشاً حول الطريقة التي يستطيع بها المرء أن تجعل روحه تنسجم مع الطبيعة.

زجاجية. وكان السرير «السماوي» نفسه يستند إلى ستة أعمدة صلبة شفافة؛ وكانت أغطية من حرير الأطلس الأرجواني والأزرق السماوي المفروش على حشية مشبعة بالمياه العربية العابقة بالبخور لتناسب أذواق البلاط الفارسي. وقد أطلق على الغرفة التي فرش فيها اسم قدس الأقداس... وبالإضافة إلى ذلك كله كانت هناك الأنغام الشجية الرخيمة من الهارمونيكا ومن الناي الناعم، والأصوات المنسجمة المتوافقة، والأُرغن الكبير».

قوة الدجال

غريت دي فرانسيسكو،

1939

وقد ابتكر شوباش أشكالاً عديدة من المعالجة كان كل منها يختلف اختلافاً عميقاً عن الممارسات الطبية المعتادة في زمانه. فكان على سبيل المثال يؤمن بالعلاج بالصدمة الكهربائية. ولأولئك الذين كانوا يتساءلون عما إذا كان ذلك متمشياً مع إيمانه بالقوة الشافية في الطبيعة كان يوضِّح بأن الكهرباء ظاهرة طبيعية، وأنه لم يكن يفعل أكثر من تقليد قوة البرق. وقد زعم أحد مرضاه أنه مسكون بسبعة شياطين. فشفاه الطبيب بالصدمات الكهربائية، وبينما كان يعطيه تلك الصدمات، كان يهتف بأنه يستطيع أن يرى الشياطين تتطاير من جسم ذلك الرجل، واحداً إثْرَ آخر. كما ادعى رجل آخر أنه ابتلع عربة قش مع سائقها، وأنهما كانا يسبِّبان له آلاماً كثيفة في صدره. واستمع إليه الطبيب الجبلي بصبر، زاعماً أنه قادر على سماع فرقعة السوط في بطن الرجل، ووعده أن يشفيه، وأعطاه مسكناً، ومطهِّراً مسهِّلاً. فنام الرجل على كرسي خارج الصيدلية. وعندما أفاق تقيَّأ، وبينما كان يتقيَّأ مرَّت من أمامه عربة قش مسرعة (وكان الطبيب الجبلي قد استأجرها لهذه المناسبة)، وجعلته فرقعة سوطها يشعر أنه قد طردها من بطنه بطريقةٍ مّا، تحت رعاية الطبيب.

وعلى مدى الأعوام، راحت شهرة الطبيب الجبلي تنمو. وصار

ذوو السلطة يستشيرونه ـ وحتى الكاتب غوته وجد طريقه إلى قريته ـ وأصبح ذلك الطبيب مركزاً لأحد طقوس الطبيعة حيث كان كل شيء طبيعي يُعْتَبَرُ جديراً بالعبادة. وكان شوباش حريصاً على خلق تأثيرات يكون من شأنها إمتاع مرضاه وإلهامهم. وقد كتب أستاذ زاره ذات مرة: «إن المرء قد يقف أو يجلس بصحبة الناس، ويلعب الورق، أحياناً مع امرأة شابة، وقد تقام حفلة موسيقية حيناً، أو وليمة غداء أو عشاء حيناً آخر، وقد تُقدَّمُ رقصةُ باليه حيناً ثالثاً. فحرّية الطبيعة تتحد في كل مكان مع مسرَّات دنيا المجتمع الراقي. وإذا لم يكن الطبيب قادراً على شفاء أي مرض، فإنه يستطيع على الأقل أن يعالج الوساوس وحالات الاكتئاب».

التفسير

بدأ شوباش حياته العملية كطبيب قروي عادي. وكان يستخدم في عيادته أحياناً بعض الأدوية الريفية التي ترعرع معها. والظاهر أنه قد لمس بعض النتائج، لأن تلك الصبغات العشبية وأشكال المعالجة الطبيعية سرعان ما صارت من اختصاصه. والواقع أن أشكال علاجه الطبيعية كانت لها بالفعل تأثيرات نفسية عميقة على مرضاه. وبينما كانت العقاقير العادية في ذلك الزمن تخلق خوفاً وألماً، كانت معالجات شوباش مريحة ومهدئة. وكان التحسن الناجم عنها في مزاج المريض عنصراً أساسياً في حالات الشفاء التي كان يحدثها. وقد آمن مرضاه بمهاراته إيماناً بلغ من عمقه أنه أيقظ إرادتهم لاستعادة صحتهم. فبدلاً من السخرية من شروحهم غير المعقولة لأوجاعهم، كان شوباش يستخدم وساوسهم لجعل الأمر يبدو وكأنه نَفَّذَ لهم علاجاً عظيماً.

وتعلِّمنا حالة الطبيب الجبلي درساً ثميناً في خلق أتباع شبه طقوسيين. فأولاً، يجب عليك أن تجد طريقة لشغل إرادة الناس، ولجعل إيمانهم بقواك راسخاً إلى درجة أنهم يتخيَّلون كل أنواع الفوائد. فستكون لإيمانهم صفة تحقِّق ذاتها، ولكن عليك أن تتأكَّد من كونك

أنت، لا إرادتهم الخاصة، الجالب لهذا التحوُّل. فأوجد الاعتقاد، أو القضية، أو الخيال لجعلهم يؤمنون بعاطفة حماسية جارفة، وسوف يتخيَّلون الباقي، فيعبدونك باعتبارك الشافي، والنبيّ، والعبقري، وأي شيء تحبّ.

وثانياً، يعلِّمنا شوباش القوة الأبدية الدائمة للإيمان بالطبيعة وبالبساطة. فالطبيعة في الحقيقة ملأى بكثير ممّا هو مرعب، كالنباتات السامَّة، والحيوانات الشرسة، والكوارث المفاجئة والطواعين. والإيمان بالصفة الشافية والمريحة في الطبيعة إنما هو في الحقيقة أسطورة مركَّبة، وحلم خيالي. غير أن اللجوء إلى الطبيعة قد يجلب قوة عظيمة، وخصوصاً في الأوقات المعقَّدة والضاغطة.

غير أن هذا اللجوء تنبغي معالجته على نحو صحيح. ابتكر نوعاً من مسرح الطبيعة، تكون فيه أنت المخرج الذي ينتقي ويختار الصفات التي تلائم الخيالات الحالمة السائدة في عصرك. وقد أتقن الطبيب الجبلي ذلك الدور، مستغلاً الحكمة المحلية والفطنة، فأخرج علاجاته وكأنها مقاطع مسرحية. فلم يتحد بالطبيعة؛ ولكنه بدلاً من ذلك قولب الطبيعة لجعلها شيئاً طقوسياً، وتركيباً مصطنعاً. ولخلق تأثير «طبيعي» يتعيَّن عليك في الواقع أن تعمل بجهد ومشقَّة جاعلاً الطبيعة مسرحية، ووثنية بشكل ممتع. وإلاَّ فلن يلاحظ أحد شيئاً. فالطبيعة أيضاً يجب أن تتبع الاتجاهات وتكون تقدمية.

المراعاة الثالثة

في سنة 1788، في سن الخامسة والخمسين، كان الطبيب والعالِم فرانز مِسْمَرْ، على مفترق طرق. فقد كان رائداً في دراسة المغناطيسية الحيوانية ـ الاعتقاد بأن الحيوانات فيها مادة مغناطيسية، وأن الطبيب أو الاختصاصيّ يستطيع إنجاز علاجات شافية كالمعجزات بالعمل في هذه المادة المشحونة ـ غير أن نظرياته في ڤيينا، حيث كان يعيش، جوبهت بالسخرية والتهكم من المؤسسة الطبِّية. ففي علاج النساء من التشنج،

قوة أكذوبة

كان يعيش في مدينة تارنوبول رجل اسمه ريب فيفل. وبينما كان جالسًا في بيته ذات يوم، مندمجًا في تلموده بعمق، سمع ضجة صاخبة في الخارج. وعندما اتجه إلى النافذة، رأى عددًا كبيرًا من المازحين المهرجين الصغار، ففكر أنهم «يدبرون واقعة جديدة من الأذى والإزعاج» فصرخ بهم: «أيها الأطفال، أركضوا إلى الكنيس بسرعة». ثم انحنى إلى الخارج، وارتجل لهم أول قصة خطرت بباله، «فسوف ترون هناك وحشًا بحريًا، ويا له من وحش! إن له خمس أقدام، وثلاث أعين، ولحيةً كلحية العنز، إلا أنها خضراء!».

وبالفعل فقد اشمعلّ الأطفال، وعاد ريب فيفل إلى دراساته. وابتسم من بين لحيته على الفكرة التي خدع بها أولئك الأوغاد الصغار. ولم يمضِ وقت طويل حتى قوطعت دراساته من جديد، بسبب وقع خطىً متراكضة هذه المرة. وعندما ذهب إلى النافذة رأى عددًا من اليهود يجرون. فصاح فيهم: «إلى أين تركضون؟» فأجابوه: «إلى الكنيس! ألم تسمع؟ أن

كان مِسْمَر يزعم أنه حقَّق الشفاء في عدد من الحالات. وكان أكثر إنجازاته مدعاة للفخر هو إعادته للبصر لفتاة عمياء. ولكن طبيباً آخر فحص الفتاة قال إنها ظلَّت عمياء كما كانت، وهو تقويم وافقته عليه الفتاة نفسها. وردَّ مِسْمَر على ذلك بأن أعداءه مصمِّمون على التشهير به عن طريق كسب الفتاة إلى صفِّهم. ولكن هذا الزعم لم يؤدِّ إلاَّ إلى استدراج المزيد من السخرية. كان واضحاً أن أهل ڤيينا ذوي التفكير اليقظ المتزن ليسوا هم الجمهور الملائم لتلقي نظرياته، وهكذا قرَّر أن ينتقل إلى باريس ليبدأ من جديد.

واستأجر شقة فاخرة في مدينته الجديدة، وقام بتزيينها على نحو ملائم. فكان الزجاج الملوَّن في معظم النوافذ يخلق شعوراً دينياً، بينما تنتج المرايا على جميع الجدران تأثيراً مغناطيسياً. وأعلن الطبيب أنه سيقدِّم في شقته عروضاً توضح قوى المغناطيس الحيواني، موجِّهاً الدعوة للمرضى والمكتئبين كي يستشعروا تلك القوة. وسرعان ما راح الباريسيون من كل الطبقات (ولكن الغالبية من النساء، اللواتي كان يظهر أن الفكرة قد اجتذبتهن أكثر من الرجال) يدفعون للدخول لمشاهدة المعجزة التي وعدهم بها مِسْمَر.

وفي داخل الشقة كانت روائح براعم البرتقال والبخور الغريب تهب وتضوع من خلال فتحات تهوية خاصة. وبينما كان المبتدئون يدلفون إلى البهو، حيث كانت تجارب العرض ستجري، سمعوا موسيقى قيثارة مع الأصوات المهدهدة لمغنية أنثى آتية من غرفة أخرى. وفي وسط البهو كانت هناك حاوية طويلة بيضويّة مليئة بماءٍ زَعَمَ مِسْمَرْ أنه قد تمَّت مغنطته. وكان هناك قضبان حديدية طويلة قابلة للتحريك ناتئة من ثقوب في غطاء الحاوية المعدنيّ. وأعطيت للزوار تعليمات بأن يجلسوا حول الحاوية، وأن يضعوا هذه القضبان الممغنطة على أجزاء أجسامهم التي فيها آلام أو مشاكل، ثم يشبكوا أيديهم بأيدي جيرانهم، وقد اقترب كل منهم من الآخر في جلوسه بالقدر المستطاع ليساعدوا القوة المغناطيسية

هناك وحشًا بحريًا... إنه مخلوق بخمس أرجل، وثلاث أعين، ولحية كلحية العنز، إلا أنها خضراء!» فضحك ريب فيفل بمرح، وهو يفكر في الخدعة التي ابتدعها. وعاد يجلس إلى تلموده.

غير أنه لم يكد يبدأ في التركيز حتى سمع جلبة صاخبة في الخارج فماذا رأى؟ كان هناك حشد عظيم من الرجال والنساء والأطفال يركضون جميعًا نحو الكنيس. فصاح فيهم وهو يمد رأسه إلى خارج النافذة: «ما الأمر؟» فأجابوه: «يا له من سؤال! ألا تعلم؟ أمام الكنيس بالضبط يوجد وحش بحري. إنه مخلوق بخمس أرجل، وثلاث أعين، ولحية كلحية التيس، إلاَّ أنها خضراء!» وبينما هرع الحشد راكضًا لاحظ ريب فيفل أن الحاخام كان بينهم. فصرخ: «يا إله العالم! إذا كان الحاخام نفسه يركض معهم، فلابد أن شيئًا ما يحدث، بحيث يوجد دخان، توجد نار!» وبدون أي مزيد من التفكير، تناول ريب فيفل قبعته، وغادر بيته وشرع يجري هو الآخر، وهو يتمتم لنفسه وقد انقطع نفسُهُ من الركض نحو الكنيس: «من يدري؟؟».

مجموعة قصص شعبية يهودية

تحرير ناثان أوسوبيل، 1948

على المرور بين أجسادهم. وأحياناً كانوا يُرْبَطون كل منهم إلى الآخر بحبال.

ثم يغادر مِسْمَرْ الغرفة، ويدخل «مساعدو ممغنِطِين» ـ كلهم شباب وسيمون أقوياء البنية ـ ومعهم جرارٌ زجاجية من المياه الممغنطة يرشُّون منها، ويفركون السائل الشافي على أجسادهم فيدلكونه ليدخل في جلودهم ويحرِّكونهم إلى حالة تشبه الغيبوبة. وبعد بضع دقائق تغلب على النساء حالة من الانفعال الهذياني. فيأخذ بعضهن في النحيب، وبعض آخر في الصراخ وتمزيق شعرهن، بينما تشرع أخريات في الضحك بشكل هستيري، وفي أوج هذا الهذيان يعود مِسْمَرْ إلى دخول البهو، مرتدياً ثوب حرير هفهاف مطرَّز بورود ذهبية ويحمل بيده عصا بيضاء ممغنطة. فيدور حول الحاوية ماسحاً على أجساد المرضى ومهدئاً لهم حتى يعود الهدوء. فكانت نساء كثيرات فيما بعد ينسبن السلطة والنفوذ اللذين يمارسهما عليهن إلى نظرته الثاقبة التي كنَّ يعتقدن أنها تهيِّج أو تهدِّىء السوائل المغنطيسية في أجسادهن.

وفي غضون أشهر من وصوله إلى باريس، صار مِسْمَرْ هو البدعة السائرة التي أقبل عليها الناس بحماس. وكان من بين مؤيديه ماري آنطوانيت نفسها، ملكة فرنسا، وزوجة لويس السادس عشر. وكما حدث في ڤيينا، فقد أدانته كلية الطب الرسمية. ولكن ذلك لم يهمّ، فقد دفع له أتباعه من التلاميذ والمرضى مبالغ محترمة.

ووسَّع مِسْمَر نظرياته ليعلن أن البشرية كلها يمكن جعلها تعيش حالة انسجام عن طريق قوة المغناطيس. وكان لهذا المفهوم جاذبية كبيرة أثناء الثورة الفرنسية. وانتشر مذهب طقوسي أطلق عليه اسم المِسْمَرِية في طول البلاد وعرضها؛ وفي مدن كثيرة نشأت «جمعيات الانسجام» لتدلي بدلوها في التجارب المغناطيسية. وطارت لهذه الجمعيات شهرة سيِّئة فيما بعد: فقد أخذت تميل إلى الانقياد لمتحلِّلين راحوا يحوِّلون جلساتها إلى نوع من ممارسة الجنس الجماعي.

وفي أوج شعبية مِسْمَرْ، نشرت لجنة فرنسية تقريراً مبنياً على خبرة سنوات من اختبار نظرية المغناطيسية الحيوانية. وكان الاستنتاج هو: إن آثار المغناطيس على الجسد تأتي في الحقيقة من نوع من الهستيريا الجماعية والإيحاء الذاتي. وكان التقرير معزَّزاً تعزيزاً جيِّداً بالوثائق، وقد حطم سمعة مِسْمَرْ في فرنسا. فغادرها وتقاعد. غير أنه لم تمضِ بضع سنوات حتى راح مقلِّدون له ينجِّمون في جميع أنحاء أوروبا. وانتشر المذهب الطقوسيّ المِسْمَرِيّ من جديد، وكان عدد أتباعه أكثر من أي وقت مضى.

التفسير

يمكن تقسيم حياة مِسْمَر العملية إلى قسمين. فعندما كان في ڤيينا كان من الواضح أنه آمن بنظريته، وفعل كل ما استطاع لإثباتها. ولكن خيبة أمله المتنامية وعدم موافقة زملائه جعلته يتبنَّى استراتيجية أخرى. فانتقل أولاً إلى باريس، حيث لا يعرفه أحد، وحيث وجدت نظرياته المتطرِّفة تربة أخصب، ثم توجه إلى حبِّ الفرنسيين للمسرح والاستعراضات المشهدية، جاعلاً شقته نوعاً من العالم السحري الذي كانت حمولته الزائدة من الروائح والمناظر والأصوات تدخل زبائنه في غيبوبة. وكان الشيء الأهم منذ ذلك الحين فصاعداً لم يعد يمارس مغناطيسيته إلاَّ على مجموعة من الناس، لأن المجموعة تعطي الجوّ الذي تكون للمغناطيسية فيه تأثيرها الصحيح والملائم، بحيث يُعدي كلُّ مؤمن مؤمناً آخر فيتغلَّبون على أيِّ فردٍ متشكِّك.

وهكذا عَبَرَ مِسْمَر من كونه مدافعاً أكيداً عن المغناطيسية إلى دور الدجَّال الذي يستخدم كل أنواع الحيل والمكر والخداع للإمساك بالجمهور. وكانت أكبر خدعة هي استغلال الرغبات الجنسية المكبوتة التي تجيش كالفقاقيع تحت السطح في جوّ المجموعة. ففي المجموعة هناك تشوُّق للوحدة الاجتماعية، وهو تشوُّق أقدم من الحضارة، يصرخ طلباً للاستيقاظ. ويمكن إدراج هذه الرغبة تحت قضية توحيدية. ولكن

تحتها يوجد شهوة جنسية مكبوتة يعرف الدجَّال كيف يستغلها ويتلاعب بها لأغراضه الخاصة.

وهذا هو الدرس الذي يعلِّمنا إياه مِسْمَر: إن ميلنا للتشكُّك والمسافة التي تتيح لنا المحاكمة العقلانية تتحطَّم كلها عندما ننضم إلى مجموعة. ذلك أن الدفء والعدوى في المجموعة يتغلَّبان على الفرد المتشكِّك. فهذه هي السلطة التي تكسبها من خلق طائفة طقوسية وكذلك من استغلال ميول الناس الجنسية المكبوتة، حيث تقودهم إلى الاعتقاد بأن مشاعرهم المهتاجة هي إشارات لقوتك الصوفية. فأنت تكسب سلطة ليس لها مثيل بالتعامل مع رغبات الناس غير المتحقّقة لنوع من الوحدة الوثنية بالاتصال الجنسي المختلط والعلاقات غير الشرعية العشوائية.

وتَذَكَّرْ أيضاً أن معظم الطوائف المذهبية تمزج الدين بالعلم. فخذ آخر توجهات التكنولوجيا أو آخر بدعة مستحوذة على الناس وامزجها مع قضية نبيلة، وإيمان صوفي، وشكل جديد من أشكال الشفاء، وسوف تنفلت من عقالها تفسيرات الناس لمذهبك الطقوسي الهجين، وسوف يعزون إليك قوىً لم تكن تفكِّر حتى في ادعائها لنفسك.

صورة: المغناطيس: قوة غير مرئية تجذب إليها الأشياء التي تصبح بدورها ممغنطة، فتجذب إليها قطعاً أخرى، وتزداد القوة المغناطيسية للكل باطّراد، ولكنك إذا أبعدت المغناطيس الأصلي فإن هذا الكل يتساقط متبعثراً. فَأَصْبِحْ أنت المغناطيسَ، القوَّةَ الخفية التي تجتذب خيالات الناس وتشدّها معاً، وما أن يتجمَّعوا حولك كالعنقود، حتى تعجز كل القوى عن انتزاعهم بعيداً عنك.

الشاهد: يحقِّق الدجَّال سلطته العظمى ببساطة عن طريق فتح إمكانية إيمان الناس بما هم مستعدون للإيمان به أصلاً... فالناس الذين يُصَدِّقون لا يستطيعون أن يحافظوا على مسافة فاصلة؛ فهم يتجمَّعون حول صانع الأعاجيب، ويدخلون في هالته الشخصية، ويُسْلِمون أنفسَهُمْ للوهم بجدِّية صارمة ثقيلة، كالمواشي (عربيّت دي فرانسيسكو).

الانقلاب

إن أحد أسباب خلق أتباع هو أن الجماعة كثيراً ما يكون التحايل عليها أسهل من خداع الفرد، كما أن ذلك يعطيك سلطة أكبر. غير أن السلطة تأتي مع خطر. فإذا كشفتك الجماعة فسوف تجد نفسك لا تواجه نفساً مخدوعة واحدة فحسب، بل حشداً غاضباً سيمزقك إرباً بِحِدَّةٍ مماثلة للحدَّة التي اتبعوك بها ذات مرة. فقد كان الدجَّالون يواجهون هذا الخطر باستمرار. وكانوا دائماً مستعدين للانتقال إلى خارج المدينة كلما اتضح بشكل حتميّ أن أكاسيرهم ليس لها فاعلية، وأن أفكارهم لم تكن سوى خدعة زائفة. فإذا كانت حركتهم مفرطة في بطئها فإنهم يدفعون حياتهم ثمناً لذلك. ذلك أنك عند تعاملك مع الجموع تلعب بالنار، ويجب عليك أن تبقي عينيك مفتوحتين باستمرار لرؤية أي شرارة شك، وأي أعداء قد يقلبون الجمهور ضدَّك. فعندما تتلاعب بعواطف حشد من الناس، عليك أن تعرف كيف تتكيَّف، بحيث تتناغم على الفور مع جميع الأمزجة والرغبات التي قد تُظْهِرُها الجماعةُ. استعمل الجواسيس، وكن مسيطراً على زمام الأمور، مستعداً لكل الاحتمالات، وابقِ حقائبك جاهزة للرحيل.

ولهذا السبب ربما تفضّل في كثير من الأحيان أن تتعامل مع الناس واحداً واحداً. ذلك أن عزلهم عن بيئتهم الطبيعية يمكن أن يكون له الأثر نفسه لوضعهم في مجموعة ـ فيجعلهم أكثر عرضةً للتأثير بالإيحاء والترهيب. اختر المغفل الملائم، وإذا استشفّ نواياك وكشفك، فقد يثبت أن الهرب منه أسهل من الهرب من حشد كبير.

القانون

28

ادخل معمعة العمل بجرأة

الحكم

إذا لم تكن متأكداً من سياق عملٍ مّا، فلا تحاوله. إذ إن حالات الشك والتردُّد عندك ستنتقل بعدواها إلى أدائك في التنفيذ. فالتخوف خَطِر: والأفضل هو الشروع في العمل بجرأة، لأن أي أخطاء ترتكبها عن طريق الصفاقة يمكن تصحيحها بالمزيد من الصفاقة. فالجميع يعجبون بالجريء، ولا أحد يكرِّم الرعديد المخلوع الفؤاد.

الجرأة والتردُّد: مقارنة نفسية مختصرة

إن الجرأة والتردُّد يَسْتَدْرِجان ردود فعلٍ مختلفة جداً في أهدافهما. فالتردُّد يضع العقبات في طريقك، والجرأة تزيلها. وعندما تفهم ذلك، فستجد أن من الجوهري أن تتغلَّب على جبنك الطبيعي، وتمارس فنّ الصفاقة. وفيما يلي بعض أبرز التأثيرات النفسية للجرأة والتخوُّف.

كلما كانت الكذبة أجرأ، كان ذلك أفضل: لدينا جميعاً نقاط ضعف. وجهودنا ليست كاملة قطّ. ولكن الشروع في العمل بجرأة له تأثير سحري هو إخفاء عيوبك. ويعرف فنانو الاحتيال أنه كلما كانت الكذبة أجرأ، أصبحت أكثر إقناعاً. فالوقاحة الصرفة للقصة تجعلها أكثر قابلية للتصديق، وتبعد الأنظار عن تناقضاتها. وعندما تنهمك في تركيب حيلةٍ مّا، أو تشرع في أي نوع من التفاوض، اذهب إلى أبعد ممّا خطَّطت. اطلب القمر، وسيدهشك عدد المرّات التي يمكنك الحصول عليه فيها.

الأُسُودُ تطوف حول الفريسة المتردِّدة: للناس حاسة سادسة يستشعرون بها نقاط ضعف الآخرين. فإذا أظهرت في مقابلة أولى استعدادك لقبول التسوية التوفيقية، والتنازل، والتراجع فإنك توقظ الأسد حتى في الناس الذين ليسوا بالضرورة متعطِّشين للدماء. فكل شيء يعتمد على التفهم والإدراك. وما أن تظهر للناس كشخص من النوع الذي

المغامران

إن طريق المسرّات لا يؤدي إلى المجد أبدًا! فإنجازات هرقل الضخمة كانت نتيجة مغامرة كبرى. ورغم أن التاريخ والخرافات لا يظهر فيها أن هرقل كان له أي منافس يُذْكَر، فإن من المسجَّل مع ذلك أن الفارس الجوّال، برفقة زميل مغامر، كان يبحث عن حظه في بلد مليء بالخيالات والأحلام. ولم يكن قد ابتعد كثيرًا في أسفاره عندما لاحظ مرافقه عمودًا نقشت عليه العبارات التالية: «أيها المغامر الشجاع، إن كنت ترغب في اكتشاف ما لم يره فارس جوال من قبلُ، فما عليك إلا أن تعبر هذا السيل، وتأخذ في ذراعيك فيلاً من الحجر، وتحمله في نفس واحد إلى قمة هذا الجبل الذي يبدو رأسه البارز مندمجًا في السماء. ولكن مرافق الفارس قال: «ولكن الماء قد يكون عميقًا، وسريعًا كذلك، وحتى لو عبرناه، فقد يعرقلنا الفيل الثقيل؟ يا له من مشروع سخيف!» ثم لاحظ بتفلسف وبحسابات دقيقة أن الفيل قد يمكن حمله أربع خطوات، ولكن إيصاله إلى قمة الجبل بنفس واحد ليس في مقدور أي إنسان، إلا أن يكون صورة مصغرة لفيل لا يصلح إلا أن يكون مركبًا على رأس عصا.

يسارع إلى اتخاذ موقف الدفاع، ويكون مستعداً للتفاوض والإذعان، حتى يأخذوا في إصدار الأوامر إليك بلا رحمة.

الجرأة تولّد الخوف، والخوف يخلق السلطة: إن الحركة الجريئة تجعلك تبدو أكبر وأقوى ممّا أنت عليه في الحقيقة. فإن جاءت فجأة بتسلّل الأفعى وسرعتها، فإنها توحي بخوف أشدّ وأكثر. وبالترهيب بحركة جريئة، تسجِّل سابقة. وفي كل مواجهة لاحقة، سيتخذ الناس منك موقف الدفاع، وهم مذعورون من ضربتك القادمة.

قطع نصف الطريق، بنصف إرادة، يحفر قبراً أعمق: إذا شرعت في عمل بأقل من الثقة الكلّية، فإنك تضع عقبات في طريقك ذاته. وعندما تنشأ مشكلة، فإنك ستحتار وترتبك، وترى خيارات حيث لا توجد خيارات، وبذلك تخلق لنفسك مزيداً من المشاكل عن غير قصد. فالأرنب المذعور عندما يتراجع مبتعداً عن الصياد، يهرع إلى مصايده على نحو أسهل.

التردُّد يخلق فجوات، والجرأة تمحقها: عندما تأخذ وقتاً للتفكير، ولكي تتردَّد وتتلجلج، فإنك تخلق فجوة تتيح للآخرين أن يفكِّروا كذلك. فتخوفك يصيب الناس بعدوى طاقة خطرة ومحرجة ويستدرج الارتباك. فالشكّ يقفز منقضّاً في كل الاتجاهات.

أمّا الجرأة فتدمِّر مثل هذه الفجوات، فسرعة الحركة وطاقة العمل لا تتركان للآخرين فسحة للشك أو القلق. فالتردُّد عند الإغواء قاتل، إذ يجعل ضحيتك واعية بنواياك. أمّا الحركة الجريئة فتتوِّج الإغواء بالانتصار: إذْ أنَّها لا تترك وقتاً للتأمُّل.

الصفاقة تفصلك عن القطيع: إن الجرأة تعطيك حضوراً وتجعلك تبدو أكبر من الحياة. فالجبناء يتلاشون في ورق الجدران. أمّا الجريئون فيجذبون الاهتمام. وما يجذب الاهتمام يجذب السلطة، إذْ أننا لا نستطيع أن نبعد أعيننا عن الوقحاء، ولا نستطيع إلاّ أن ننتظر حركتهم التالية بتلهف.

وعندئذٍ فأي شرف سيكون في مثل هذه المغامرة؟ فقال المرافق: «هناك خدعةٌ ما في هذه الكتابة وإنها للغز لا يصلح إلا لتسلية طفل. ولذلك فإنني سأتركك أنت وفيلك».

ثم غادر المفكر بذلك المنطق، ولكن الرجل المغامر هجم بعينين مغمضتين عبر الماء، فلم يمنعه عمقه ولا عنف جريانه من خوضه. وحسبما هو وارد في النقش رأى الفيل على الضفة الأخرى فأخذه وحمله إلى القمة؛ وهناك رأى مدينة تنبه سكانها على صوت صرخة الفيل، فهبّوا بسلاحهم. ولكن المغامر لم يخف من شيء، إذْ إنه كان مصمّمًا على أن يموت بطلاً. غير أن الناس قد أرهبهم حضوره، فأذهله أن يسمعهم ينادون به خلفًا لملكهم الذي كان قد توفي قبل ذلك بوقت قصير.

إن المشاريع العظمى لا يحقّقها إلا أصحاب النفوس المغامرة، أما أولئك الذين يحسبون بدقة أكثر مما ينبغي كلّ صعوبة أو عقبة يحتمل أن تعترض طريقهم، فإنهم سوف يضيعون الوقت في التردد. وهو الوقت الذي يغتنمه الجريئون لتحقيق أسمى الأهداف.

خرافات

جان دي لافونتين

1695-1621

مراعاة القانون

المراعاة الأولى

في أيار/ مايو سنة 1925، وجد خمسةٌ من أنجح تجَّار الخردوات المعدنية الفرنسيين أنفسهم مدعوين إلى اجتماع «رسمي» ولكنه «سرِّي للغاية» مع نائب المدير العام لوزارة البريد والبرق في فندق كريلّون، الذي كان آنذاك أكثر الفنادق فخفخة وبذخاً في باريس. وعندما وصل التجار، كان المدير العام نفسه، ويدعى السيِّد لاستيغْ، هو الذي التقى بهم في جناح أنيق بالطابق الأعلى.

ولم تكن لدى التجار فكرة عن سبب استدعائهم إلى هذا الاجتماع، فكانوا يتفجَّرون بالفضول. وبعد المشروبات، شرح لهم المدير الأمر بقوله: «أيها السادة، إن هذه قضية عاجلة تتطلَّب سرِّيَّة كاملة. إن الحكومة ستضطرّ إلى هدم برج إيفل». وأنصت التجار في صمت وذهول بينما كان المدير يوضح أن البرج ـ كما ورد مؤخراً في الأخبار ـ بحاجة ماسّة إلى إصلاحات. وكان المقصود منه في الأصل أن يكون هيكلاً مؤقتاً (المعرض سنة 1889)، وستضطر الحكومة إلى صرف الملايين إن أرادت ترميمه. وكثير من الباريسيين يعتبرونه قذىً في العين وسوف يسرّهم أن يروه يختفي. وبمرور الزمن فسوف ينساه حتى السيّاح ـ غير أنه سيستمر في العيش في الصور والبطاقات البريدية. وقال لاستيغ: «أيها السادة، إنكم جميعاً مدعوون لتقديم عرض للحكومة لشراء برج إيفل».

ثم أعطاهم أوراقاً من قرطاسية الحكومة مليئة بالأرقام، كوزن معادن البرج بالأطنان. ونتأت عيونهم عندما حسبوا كم يستطيعون أن يربحوا من هذه الخردوات. ثم اقتادهم لاستيغ إلى سيارة ليموزين كانت بالانتظار وأخذهم معه إلى برج إيفل. ولوَّح بشارة رسمية في يده، وطاف بهم في المنطقة، وهو يحكي لهم قصصاً مسلية. وفي نهاية

انطلق للعمل دائمًا دون هواجس بسبب الطيش أو التهور، فالخوف من الفشل في ذهن القائم بالعمل هو في عين الناظر دليل مبكر على الفشل... فالأعمال تكون خطرة عندما يكون هناك تشكّك في حكمتها؛ وعندئذ فإن من الأسلم ألاّ يفعل المرء شيئًا.

بلثازار غراسيان

1658-1601

الزيارة شكرهم، وطلب منهم أن يوصلوا عروضهم إلى جناحه في غضون أربعة أيام.

وبعد بضعة أيام من تسليم العروض، تلقى واحد من الخمسة، يدعى السيد ب. إشعاراً بأن عرضه هو الفائز، وأنه من أجل تأمين البيع يتعيَّن عليه الحضور إلى الجناح في غضون يومين، حاملاً شيكاً مصدَّقاً بمبلغ يزيد على ربع مليون فرنك (أي ما يعادل اليوم مليون دولار) ـ وهو ربع الثمن الكلّي. وعند تسليم الصك يتلقى الوثائق المؤكدة لملكيته لبرج إيفل. فتحمَّس السيد ب. ـ إذْ أنه سوف يُذْكَرُ في التاريخ على أنه الرجل الذي اشترى ذلك المَعْلَمَ اللعين وهدمه. ولكنه عندما وصل إلى الجناح، وبيده الصك، كان الشك قد بدأ يراوده حول القضية بِرُمَّتها. فلماذا يتم اللقاء في فندق، بدلاً من مبنى حكوميّ؟ ولماذا لم يسمع شيئاً من مسؤولين آخرين؟ فهل هذه مكيدة؟ خديعة؟ وبينما كان يستمع إلى لاستيغ وهو يناقش ترتيبات تهديم البرج، تردَّد وفكَّر في الانسحاب.

غير أنه أدرك فجأةً أن المدير قد غيَّر لهجته. وبدلاً من التحدُّث عن البرج، راح يتذمَّر من قلَّة راتبه، ومن رغبة زوجته في معطف فرو، وكم هو مثير للحنق أن يشتغل بمشقة دون أن يلقى تقديراً. وهكذا اكتشف السيد ب. أن هذا الموظف الحكومي الكبير كان يطلب رشوة. فكان أثر ذلك عليه هو الشعور بالراحة، وليس بالسخط. فقد تأكد أن لاستيغ حقيقي، إذ أنه في جميع مقابلاته السابقة مع الموظفين البيروقراطيين الفرنسيين، كانوا يطلبون شيئاً من الرشوة حتماً. فعادت إليه ثقته بنفسه، فأعطى المدير عدة آلاف من الفرنكات، ثم سلَّمه الصك المصدَّق. وفي مقابل ذلك تلقَّى الوثائق، بما فيها استمارة بيع ذات منظر مثير للإعجاب. فغادر الفندق وهو يحلم بالأرباح والشهرة التي ستهبط عليه.

غير أن السيد ب.، وعلى مدى الأيام القليلة التالية، بينما كان ينتظر مراسلة من الحكومة، بدأ يدرك أن هناك خللاً مّا. وبعد بضع

مكالمات هاتفية اتضح له أنه لم يكن هناك نائب مدير سنة باسم لاستيغْ، ولا خطط لتدمير برج إيفل. لقد سُلِبَ منه مبلغٌ زاد على ربع مليون فرنك!

ولم يذهب السيد ب. إلى الشرطة أبداً. فقد كان يعلم أي نوع من السمعة سيلحق به إذا انكشف للناس أنه وقع ضحية أكبر عملية نصب وقحة ومضحكة في التاريخ. فبالإضافة إلى الفضيحة العلنية المذلّة، ستكون المسألة انتحاراً تجارياً.

التفسير

لو حاول الكونت فكتور لاستيغ، فنان الاحتيال الخارق للعادة، أن يبيع قوس النصر، أو جسراً على نهر السين، أو تمثالاً لبلزاك، لما صدَّقه أحد. ولكن برج إيفل كان أضخم وأقل احتمالاً من أن يصير جزءاً من عملية نصب. بل لقد كان الاحتمال من الضآلة بحيث استطاع لاستيغ أن يعود إلى باريس بعد ذلك الوقت بستة أشهر و«يعيد بيع» برج إيفل إلى تاجر خردوات آخر، ولقاء ثمن أعلى ـ مبلغ يعادل اليوم أكثر من مليون ونصف مليون دولار!

إن اتساع النطاق يخدع العين البشرية، فهو يشتّتنا ويشعرنا بالرهبة. وهو واضح بذاته إلى درجة أننا لا نستطيع أن نتصوَّر أن هناك وهماً وشَرَكَ خديعة منصوباً. سلِّح نفسك بالضخامة والجرأة، وامدد أحابيلك إلى أقصى مدى تصل إليه، ثم تجاوزها إلى ما هو أبعد. وإذا شعرتَ بأن المغفل تساوره الشكوك، فافعل كما فعل لاستيغ الجَسُور. فبدلاً من الانسحاب أو تخفيض سعره، قام ـ ببساطة ـ برفع ذلك السعر، فطلب رشوة، وحصل عليها. ذلك أن رفع السعر يضع الشخص الآخر في موقف الدفاع، ويقمع تأثير التآكل الناجم عن المساومة والشكوك، ويتغلَّب على الآخر بجرأته.

المراعاة الثانية

على فراش الموت في سنة 1533، قام فاسيلي الثالث، الدوق

قصة هُوة ساينْغْ

في كوخ متواضع مسقوف بالقش في وادي نامسان، كان يعيش زوجان فقيران هما السيد والسيدة هوه ساينغ. وقد حبس الرجل نفسه سبع سنوات لم يكن يفعل فيها شيئًا سوى قراءة الكتب في غرفته الباردة...

وذات يوم قالت له زوجته وقد غلبتها الدموع: «انظر هنا يا رجلي الطيِّب، ما الفائدة من قراءاتك لكل هذه الكتب؟ لقد أمضيتُ شبابي أغسل وأخيط ملابس الآخرين، ومع ذلك فليس عندي سترة زائدة أو تنورة ألبسها، ولم أذق طعم الزاد منذ ثلاثة أيام، وأشعر بالجوع والبرد ولم أعد أطيق ما أنا فيه!»... وعندما سمع العالم الذي بلغ منتصف العمر هذه الكلمات، أغلق كتابه... وهبَّ واقفًا على قدميه و... بدون أن يقول كلمة أخرى، انطلق إلى الخارج... وعندما وصل إلى قلب المدينة، أوقف رجلاً عابرًا وقال له: «مرحبًا يا صديقي! منْ هو أغنى رجل في المدينة؟» فأجابه: «أيها الريفي المسكين! ألا تعرف بيونسي المليونير؟ ههنا بيته اللامع المسقوف بالآجرّ، الذي تخترقه اثنتا عشرة بوابة». فوجَّه هوه ساينغ خطواته نحو بيت الرجل الغني. وبعد أن دخل من البوابة الكبيرة، فتح باب غرفة الضيوف على مصراعيه وخاطب مضيفه: «إنني بحاجة إلى عشرة آلاف يانغ كرأسمال لمشروعي التجاري، وأريدك أن تقرضني المال». فقال الرجل

الأكبر لموسكو، وحاكم روسيا شبه المتحدة، بتنصيب ابنه إيڤان الرابع، الذي لم يتجاوز عمره ثلاثة أعوام، خلفاً له. وعيَّن زوجته الشابة، هيلينا، وصيَّة عليه حتى يبلغ أشدّه ويستطيع ممارسة الحكم بنفسه. وفرحت الأرستقراطية بذلك سرّاً (وهي طبقة النبلاء المعروفة باسم البويار). فقد ظلَّ دوقات موسكو سنوات طويلة يحاولون أن يمدُّوا سلطتهم على إقطاعيات البويار. ومع موت فاسيلي وكون وريثه مجرَّد طفل في الثالثة، وكون المسؤولة عن الدوقيّة امرأة شابة، فقد مَنَّى البويار أنفسهم بأنهم سيتمكَّنون من طيّ مكاسب الدوق، وانتزاع السيطرة على الدولة، وإذلال الأسرة المالكة.

وكانت هيلينا الشابة تعي هذه الأخطار، فلجأت إلى صديقها الموثوق، الأمير إيڤان أوبولنسكي، لمساعدتها في الحكم. ولكنها ماتت فجأة بعد خمسة أعوام من العمل كوصية، إذْ سمَّمها أحد أفراد أسرة شويسكي، أكثر عشائر البويار إثارة للرهبة. واستولى أمراء آل شويسكي على الحكومة، وألقوا أوبولنسكي في غياهب السجن، حيث بقي حتى مات فيه جوعاً. وفي سن الثامنة، صار إيڤان يتيماً محتقراً. أما أي بويار أو عضو في الأسرة يظهر الاهتمام به فقد نُفِيَ أو قُتِلَ على الفور.

وهكذا أخذ إيڤان يطوف في القصر، جائعاً، زريّ الثياب، وغالباً مختبئاً خوفاً من آل شويسكي، الذين راحوا يعاملونه بخشونة كلما رأوه. وكانوا في بعض الأيام يبحثون عنه، ويلبسونه الأثواب الملكية، ويناولونه صولجاناً، ويضعونه على العرش ـ كنوع من الطقوس الساخرة التي يتهكَّمون بها على ادعاءاته الملكية، ثم يطردونه بعيداً. وذات مساء قام العديد منهم بمطاردة المطران ـ رئيس الكنيسة الروسية ـ في أبهاء القصر، فالتجأ إلى غرفة إيڤان. وتفرَّج الصبيّ في ذعر ورعب بينما دخل آل شويسكي، ووجَّهوا الإهانات، وشرعوا يضربون المطران بلا رحمة.

وكان لإيڤان صديق واحد في القصر، بويار، اسمه فورونتزوف كان يعزيه وينصحه. وذات يوم، بينما كان فورونتزوف والمطران الجديد

الغني: «حسنًا يا سيدي، إلى أين أرسل المال؟» فردّ ساينغ: «إلى سوق آنسونغ، تحت رعاية وكيل بالعمولة» فقال بيونسي: «حسنًا يا سيدي. سوف أسحب المال على حساب كيم، أكبر تاجر بالعمولة في سوق آنسونغ. وسوف تحصل على المال هناك». فودعه سيانغ وانصرف. وبعد انصرافه سأل الضيوفُ الآخرون جميعًا بيونسي عن سبب إعطائه كل هذا المبلغ لغريب يشبه الشحّاذين، واسم عائلته غير معروف لديه. ولكن الرجل أجاب وعلى وجهه سيما الانتصار: «رغم أنه كان رثّ الملابس، فقد تحدث بوضوح، وقصد إلى موضوعه دون أن يظهر أي شيء من الشعور بالخجل أو النقص، على عكس الناس العاديين الذين يريدون أن يقترضوا مالاً من أجل دَيْن ميت لم يُقْضَى. إن رجلاً كهذا إما أن يكون مجنونًا أو أنه واثق بنفسه في عمله التجاري. ولكن إذا حكمنا بموجب النظرة الجريئة غير الخائفة في عينيه، وصوته المدوي، فإنه رجل غير عادي، ذو دماغ متفوق، وهو جدير بثقتي. إنني أعرف المال، وأعرف الرجال. فالمال كثيرًا ما يجعل الرجل صغيرًا. ولكن رجلاً مثل هذا يثمّر المال. وإنني لسعيد لأنني ساعدتُ رجلاً كبيرًا على القيام بعمل تجاري كبير».

خلف كواليس القصور الملكية في كوريا

هاتاي – هونغ، 1983

يتشاوران في غرفة الطعام بالقصر، اقتحم الغرفة عدد من أفراد آل شويسكي، وانهالوا بالضرب المبرح على فورونتزوف، وأهانوا المطران بتمزيق أثوابه والدوس عليها بأقدامهم. ثم نفوا فورونتزوف من موسكو.

وطوال هذا كله حافظ إيڤان على صمت صارم. وبدا للبويار أن خطتهم قد نجحت. فقد بدا لهم أن الفتى تحوَّل إلى أبله مذعور ومطيع، وأنهم يستطيعون أن يتجاهلوه الآن، بل ويتركوه وشأنه. ولكن في مساء يوم 29 كانون الأول/ ديسمبر 1543، قام إيڤان، الذي بلغ الثالثة عشرة من عمره آنذاك، بدعوة الأمير آندريه شويسكي للمجيء إلى غرفته. وعندما وصل الأمير، كانت الغرفة ممتلئة بحرَّاس القصر. فأشار إيڤان الصغير بإصبعه إلى آندريه، وطلب منهم أن يقبضوا عليه ويقتلوه، ويلقوا بجثته إلى الكلاب الضخمة في الوِجَار الملكي. وعلى امتداد الأيام القليلة التالية أمر إيڤان بالقبض على جميع الأصدقاء المقرَّبين لآندريه ونفيهم. وأُخِذَ البويار على حين غِرَّة بشجاعته المفاجئة، فأصيبوا بذعر قاتل من هذا الفتى، الذي صار يعرف ـ فيما بعد ـ باسم إيڤان الرهيب، الذي ظل يخطِّط وينتظر خمسة أعوام، لتنفيذ هذا العمل الواحد السريع والجريء، الذي أمَّن له السلطة على مدى عقود لاحقة.

التفسير

إن العالم مليء بالبويار، وهم الأناس الذين يحتقرونك، ويخشون طموحك، ويحرسون بغيرة شديدة ممالك سلطتهم الآخذة في الانكماش. فأنت، بحاجة إلى تثبيت سلطتك، وكسب الاحترام. ولكن البويار سوف يهبُّون للعمل لإعاقتك في اللحظة التي يشعرون فيها بجرأتك المتنامية. وقد واجه إيڤان هذا الوضع بالطريقة التالية: طأطأ رأسه، ولم يظهر طموحاً ولا سَخَطاً. بل انتظر. وعندما حان الوقت كسب حراس القصر إلى جانبه. وكانوا قد بدأوا يكرهون آل شويسكي القساة. وما إن وافقوا على خطة إيڤان حتى ضرب ضربته بسرعة

الأفعى، مشيراً بإصبعه إلى شويسكي دون إعطائه وقتاً ليبدر منه أي رد فعل.

تفاوضْ مع بوبار، وستخلق له فرصاً. إن أي تسوية توفيقية صغيرة ستعطيه موطىء إصبع القدم الذي يحتاج إليه ليمزقك إرباً. إن الحركة المباغتة الجريئة، بدون نقاش ولا إنذار تمحق مثل هذا الموطىء محقاً؛ وترسِّخ سلطتك. كما أنك بذلك ترهب المتشكِّكين والمحتقِرين وتكسب ثقة الكثيرين الذين يعجبون بالمتصرفين بجرأةٍ ويمجِّدونهم.

المراعاة الثالثة

في سنة 1514، كان بيترو آرِيتينو، البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً، يعمل بوظيفة منخفضة الرتبة كمساعد طبَّاخ لأسرة رومانية ثرية. وكانت لديه طموحات للوصول إلى العظمة ككاتب، وإلهاب العالم باسمه، ولكن أنّى لخادم متواضع أن يأمل في تحقيق مثل هذه الأحلام؟

إن الخوف، الذي يضخم الأشياء دائمًا، يجسد خيالات الناس، فيجعلها تأخذ شكل أي شيء يتصورون وجوده في أفكار أعدائهم، بحيث أن الأشخاص الخائفين نادرًا ما ينجون من الوقوع في المضايقات المركبة، التي تنجم عن أخطار وهمية متخيلة... وكان الدوق، صاحب الشخصية المسيطرة المليئة دائمًا بالخوف وعدم الثقة، من بين جميع الرجال الذين رأيتهم في حياتي، أكثر الرجال قابلية لاتخاذ خطوات خاطئة، بسبب ذعره من احتمال الوقوع في الخطأ... وهو في ذلك يشبه الأرانب البرية.

الكردينال دي ريتز

1613-1679

وفي ذلك العام تلقّى البابا ليو العاشر من ملك البرتغال سفارة شملت كثيراً من الهدايا كان من أبرزها فيل عظيم هو الأول في روما منذ أيام الإمبراطورية. وقد أخذ البابا يعبد هذا الفيل ويمطره بالاهتمام والهدايا. ولكن على الرغم من حبِّه ورعايته فإن ذلك الفيل، الذي كان يدعى «هانو» أُصيب بمرض مميت. واستدعى البابا الأطباء الذين سقوا الفيل خمسمائة رطل من الدواء المسهِّل والمطهِّر، ولكن بلا جدوى. فقد مات الحيوان، ولزم البابا حداداً عليه. ولكي يعزِّي نفسه استدعى الرسَّام العظيم رافائيل وأمره أن يرسم لوحة بالحجم الطبيعي لهانو فوق قبره، وينقش عليه: «ما أخذته الطبيعة أعاده رافائيل بفنِّه».

وعلى امتداد الأيام القليلة التالية، وُزِّع في روما كتيِّب سبَّب كثيراً من المرح والضحك، عنوانه: «آخر وصية وشهادة للفيل هانو»، وجاء فيه: «إلى وريثي الكردينال سانتا كروتشيه، أتبرَّع بِرُكَبِي، كي يتمكَّن من تقليد انحناءاتي... ولِوَرِيثِي الكردينال سانتي كواترو أُعطي فكِّيَّ، كي

يتمكَّن أن يبتلع جميع عائدات المسيح بسهولة أكثر. . . ولوريثي الكردينال مديتشي أعطي أُذنيَّ، كي يتمكَّن من سماع ما يفعله كل شخص. . .» وللكردينال غراسي، الذي شاعت عنه سمعة الفحش، تبرَّع الفيل بالعضو المناسب، الضخم الحجم جداً، من جسده.

وتابع الكتيِّب المجهول المؤلِّف على هذا النحو فلم يوفِّر أحداً من عظماء روما، حتى البابا، مستهدفاً أفضل ما هو معروف من نقاط الضعف عن كل واحد منهم. وانتهى الكتيِّب بسطور من الشعر: «احرص على أن يكون آريتينو صديقك / لأنه عدوٌّ سيِّىء جداً/ فكلماته وحدها تستطيع تدمير البابا العالي المقام/ فليحرس الله الجميع من لسانه».

التفسير

بِكُتَيِّبٍ صغيرٍ واحد، قام آريتينو، الخادم ابن الإسكاف، بقذف نفسه إلى الشهرة. فقد سارع كل شخص في روما لاكتشاف هوية هذا الفتى الجريء. وحتى البابا، الذي وجد وقاحته مسلِّية، بحث عنه وانتهى به الأمر إلى توظيفه في الخدمة البابوية. وعلى مدى السنين صار يعرف بلقب «بلاء الأمراء»، وكسب له لسانه العضوض احترام العظماء وخشيتهم، من ملك فرنسا إلى إمبراطور آل هابسبرغ.

وكانت خطته الاستراتيجية بسيطة: فعندما تكون صغيراً ومغموراً مثل داوود، فإن عليك أن تجد غولياث (جالوت) لتهاجمه. وكلما كبر هدفك زاد الاهتمام الذي تكسبه. وكلما كان الهجوم أجرأ، زاد بروزك من بين الجموع، وزاد الإعجاب الذي تحصل عليه. فالمجتمع مليء بالذين تراودهم أفكار عظيمة، ولكن تنقصهم الشجاعة لطبعها ونشرها. فكن الصوت المعبِّر عما يشعر به عامة الناس ـ لأن التعبير عن المشاعر المشتركة قويٌّ دائماً. ففتِّش عن أبرز هدف ممكن، واقذفه بأجرأ رمية من مقلاعك. وسوف يستمتع العالم بالمشهد، وسوف يكرم المستضعف ـ الذي هو أنت ـ بالمجد والسلطة.

الولد والنبتة القرّاصة

لسعت نبتةٌ قرّاصةٌ ولدًا كان يلعب في الحقول. فركض إلى أمه في البيت، وأخبرها أن عشبةً كريهة قد لمسته وقرصته. فقالت له: «إن

مفاتيح السلطة

إن معظمنا متخوِّفون. فنحن نريد أن نتجنَّب التوتر والصراع ونريد أن يحبنا الجميع. وقد نفكِّر في عمل جريء، ولكننا نادراً ما نخرجه إلى الحياة، إذ أننا مذعورون من العواقب، وممّا قد يفكِّر به عنا الآخرون، ومن العداوة التي سنثيرها إذا تجرَّأنا على تجاوز مكاننا المعتاد.

ورغم أننا قد نموِّه خوفنا بأنه قلق بشأن الآخرين، ورغبة في عدم إيذائهم أو مضايقتهم، فالحق أن العكس هو الصحيح، لأننا في الحقيقة غارقون في ذواتنا، قلقون على أنفسنا، وكيف يفهمنا الآخرون. ولكن الجرأة، من ناحية أخرى، موجَّهة إلى الخارج. وكثيراً ما تجعل الناس يشعرون بأنهم مرتاحون وعلى سجيتهم، لأنها أقل شعوراً بالذات، وأقل تعرضاً للكبت.

ويمكن رؤية ذلك على نحو أوضح في الإغواء. ذلك أن جميع أبطال الإغواء العظام، ينجحون عن طريق الوقاحة. فجرأة كازانوفا لم تكن تتكشَّف بالاقتراب من المرأة التي يرغب فيها، أو بكلمات جسورة تتملَّقها، بل كانت تتألف من قدرته على الاستسلام لها بصورة تامّة، وجعلها تعتقد أنه سيفعل أي شيء تطلبه، حتى المخاطرة بحياته. وقد فعل ذلك أحياناً. فكانت المرأة التي يكرِّمها، بهذا الاهتمام السخيّ، تفهم أنه لا يبخل عليها بشيء. وكان ذلك أكثر تملقاً للمرأة من المدائح. ولم يكن يُظهِر أي تردّد أو شكّ، في أية لحظة، أثناء عملية الإغواء، لأنه - ببساطة - لم يشعر بالتردُّد أو الشك على الإطلاق.

إن جزءاً من سحر الإغواء هو أنه يشعرنا بأننا منغمسون، وخارجون من إطار ذواتنا مؤقتاً، وكذلك من الشكوك المعتادة التي تتخلَّل حياتنا. ففي اللحظة التي يتردَّد فيها المغوي ينهار السحر، لأننا نصبح واعين بالعملية، وبالجهود المتعمدة المبذولة لإغوائنا، وبوعيهم بذواتهم. إذ أن الجرأة توجِّه الانتباه إلى الخارج وتبقي الوهم حيّاً. وهي لا تستدرج أي صعوبة أو إحراج. وهكذا فإننا نعجب بالجريئين، ونفضِّل

لمسك إياها يا ولدي هو الذي جعلها تقرصك. وفي المرة القادمة التي تعبث فيها بنبتة قراصة، اقبض عليها بشدةٍ وإحكام ولن تؤذيك».

إن أردت القيام بأي عمل، فاعمله بجرأة.

خرافات

إيسوب، القرن السادس قبل الميلاد

كيفية الانتصار في الحب

أما بالنسبة لأولئك الذين تركوا أثرًا على قلبك فقد لاحظت أنك رعديد مخلوع الفؤاد. وهذه صفة قد تؤثر على البورجوازي. ولكن عليك أن تهاجم قلب المرأة الخبيرة بأسلحة أخرى... وأقول لك نيابةً عن النساء: ليست منا امرأة لا تفضل شيئًا من الخشونة في المعاملة على احترام مفرط أكثر مما ينبغي. فالرجال يخسرون من خلال الخطأ قلوبًا أكثر من

أن نبقى بالقرب منهم، لأن ثقتهم بأنفسهم تعدينا، وتجرّنا إلى خارج مجال الانطواء الداخلي على الذات والتأمل في أنفسنا.

وقليلون هم الذين يولدون جريئين. وحتى نابليون كان مضطراً إلى تربية هذه العادة في ميدان القتال، حيث كان يعلم أن الأمر أمر حياة أو موت. أما في الأجواء الاجتماعية، فقد كان خشناً ساذجاً ومتهيباً. ولكنه تغلب على ذلك وتدرب على ممارسة الجرأة في كل نواحي حياته لأنه رأى قوتها الهائلة، وكيف يمكنها أن تكبّر حجم الرجل (حتى ولو كان في الحقيقة صغيراً على نحو يلفت الأنظار، مثل نابليون). كما أننا نرى هذا التغيير في إيڤان الرهيب، الولد البسيط غير المؤذي الذي يحوّل نفسه فجأة إلى فتىً يتحكم بالسلطة، عن طريق الإشارة بإصبعه واتخاذ إجراء جريء.

إن عليك أن تمرّن جرأتك وتُطَوِّرَها. فكثيراً ما تجد أن لها استخدامات. وإن أفضل مكان للبدء هو عالم المفاوضات الدقيق، ولا سيما تلك المناقشات التي يُطْلَبُ فيها منك أن تعرض سعرك. فما أكثر المرات التي نخفّض قيمتنا بطلب سعر مفرط في الرخص. فعندما اقترح كريستوفر كولومبوس على البلاط الإسباني تمويل رحلته إلى الأميركَتَيْن، قدَّم أيضاً طلباً جريئاً إلى حدّ الجنون، وهو أن يطلق عليه لقب «أميرال المحيط الكبير». فوافق البلاط. وكان السعر الذي وضعه هو السعر الذي تلقاه ـ فقد طلب أن يعامَلَ باحترام، وهكذا كان. وكان هنري كيسنجر يعرف أيضاً أن الطلبات الجريئة في المفاوضات تنجح أكثر من البدء بتنازلات جزئية متقطعة، ومحاولة الالتقاء مع الطرف الآخر في منتصف الطريق. اجعل قيمتك عالية، ثم ـ كما فعل الكونت لاستيغ ـ ارفعها أعلى. إفهم: إذا كانت الجرأة غير طبيعية، فإن التهيّب غير طبيعي كذلك، بل هو صفة مكتسبة، يلتقطها المرء من رغبته في تجنب النزاع، فإذا استولى عليك التهيّب، إذن، فاقتلعه من جذوره. ذلك أن مخاوفك من عواقب عمل جريء هي بعيدة جداً عن التناسب مع الحقيقة. بل إن

التي تنقذها الفضيلة. فكلما زاد الخوف الذي يبديه العشيق معنا، كان حنّنا له مقلقًا لكبريائنا. وكلما زاد احترامه لمقاومتنا، زادت مطالبتنا له باحترام إضافي. ونقول لكم بإرادتنا يا معشر الرجال: «آه، باسم الشفقة، لا تعتبرونا شديدات الفضيلة والعفاف، لأنكم بهذا الافتراض ترغموننا على التمسك بشيء أكبر مما ينبغي منهما...» إننا نكافح باستمرار لإخفاء حقيقة كوننا قد سمحنا لأنفسنا بأن نُحَبّ. ضع امرأةً في موقع يجعلها تقول إنها لم تستسلم إلاّ لنوع من العنف، أو للمفاجأة: وأقنعها بأنك لا تقلل من قيمتها، وسأجيبك بالنيابة عن قلبها... إن قليلاً من الجرأة الإضافية من جانبك سوف تريحك وتريحها. هل تذكر ما قاله لك السيد لاروشفوكو مؤخرًا: «إن الرجل العاقل الواقع في الحب قد يتصرف كمجنون. ولكن لا ينبغي له، ولا يستطيع، أن يتصرّف كأبله».

حياة نينو دي لينكلو، ورسائلها، وفلسفتها الأبيقورية [الباحثة عن اللذة]

نينو دي لينكلو،

1705–1620

عواقب التهيّب أسوأ منها في الحقيقة، إذ أنك بالتهيب تخفض قيمتك، وتخلق دائرة أو حلقة مفرغة تحقق ذاتها من الشك والمصائب. تذكر: إن المشاكل الناجمة عن حركة وقحة يمكن تمويهها، وحتى معالجتها، بالمزيد من الوقاحة بصورة أعظم.

صورة: الأسد والأرنب. لا يترك الأسد
فجوات في طريقه فحركاته كاسحة
للغاية، وفكّاه سريعان وقويان للغاية.
أما الأرنب الجبان فيسفعل أي شيء
ليهرب من الخطر، ولكنه في تسرعه
للتراجع والفرار، يسقط في المصايد،
ويقفز بالضبط إلى داخل فكوك أعدائه.

الشاهد: إنني أعتقد بالتأكيد أن التهور أفضل من الحذر، لأن الثروة امرأة. وإذا أردت السيطرة عليها فمن الضروري أن تقهرها بالقوة؛ ويمكن الملاحظة بأنها تسلس قيادها بالسماح للجريئين بالتغلب عليها بدلاً من الذين يتحركون ببرودٍ. ولذلك فإنها ـ كالمرأة ـ صديقة للشباب، لأنهم أقل حذراً، وأكثر شراسة، ويسيطرون عليها بصفاقة أعظم.

(نيقولو ماكيافيلي، 1469-1527)

الانقلاب

ينبغي أن لا تكون الجرأة أبداً هي الاستراتيجية وراء كل أعمالك، إذ أنها أداة تكتيكية للاستخدام في اللحظة المناسبة. خطِّط وفكّر سلفاً، واجعل آخر عنصر هو الحركة الجريئة التي ستأتيك بالنصر. وبكلمات أخرى، بما أن الجرأة هي استجابة يتعلمها المرء، فإنها كذلك استجابة تتعلم التحكم بها واستخدامها عندما تشاء. فبقاؤك في الحياة مسلحاً بالصفاقة وحدها سيكون مدعاة للسأم، وقاتلاً أيضاً. إذْ أنك ستزعج

عدداً من الناس زائداً عن الحدّ، كما يُثْبِتُ العاجزون عن السيطرة على جرأتهم. ومنهم لولا مونتيز؛ فصفاقتها جلبت لها انتصارات، وأدّت إلى إغوائها لملك باڤارية، ولكن نظراً لعجزها عن لجم جرأتها، فقد أدت تلك الصفاقة أيضاً إلى سقوطها ـ في باڤارية، وفي إنكلترا، وفي أي مكان اتجهت إليه. فقد تجاوزت الحدود بين الجرأة ومظهر القسوة، وحتى الجنون. وتعرض إيڤان الرهيب للمصير نفسه: فعندما جاءته قوة الجرأة بالنجاح، لازَمَها والتصق بها إلى حد أصبحت معه نمطاً من العنف والسَّاديَّة لازمه طول حياته (السَّاديَّة هي استقطار اللذة من إيلام الآخرين، وتُنْسَبُ إلى المركيز دي صاد: المترجم).

إن التهيب لا مكان له في عالم السلطة. غير أنك كثيراً ما تستفيد من القدرة على التظاهر به زيفاً. وعندئذ لا يعود تهيباً بالطبع، بل سلاحاً هجوميّاً: إذ أنك تستدرج الناس بتظاهرك بالخجل، وهذا أفضل جداً لتمكينك من الانقضاض عليهم بجرأة فيما بعد.

القانون

29

خطّط طوال الطريق حتى النهاية

الحكم

إن الإنهاء هو كل شيء. فخطِّط طيلة الطريق كله حتى تصل إليه، آخذاً في الحسبان كل العواقب، والعقبات، وتقلبات الحظ المحتملة التي قد تعاكس عملك الجدي الشاق وتعطي المجد للآخرين. وبالتخطيط حتى الختام لن تتغلب عليك الظروف وستعرف متى تتوقف. وَجِّه الحظَّ بلطفٍ، وساعده على البتّ في المستقبل بالتفكير مقدماً وإلى مدى بعيد.

انتهاك القانون

لا يوجد سوى عدد قليل جدًا من الرجال القادرين على التفكير والشعور بما هو أبعد من اللحظة الراهنة. وهؤلاء هم الاستثناء...

كارل فون كلاوز فيتز

1831–1780

في سنة 1510، أبحرت سفينة من جزيرة هِسْبَانيولا (حالياً هاييتي وجمهورية الدومينيكان) إلى فنزويلا، حيث كانت ستنقذ مستعمرةً إسبانيةً محاصرة. وبعد خروجها من الميناء بعدة أميال، نزل من خزانة المؤن شخص هاربٌ خفية: هو فاسكو نونيز دي بالبوا، نبيل إسبانيّ كان قد جاء إلى الدنيا الجديدة بحثاً عن الذهب، ولكنه غرق في الديون وهرب من دائنيه بالاختباء في الخزانة.

وكان هوس الذهب قد تملّك بالبوا منذ أن عاد كولومبوس إلى إسبانيا من رحلته بقصص عن مملكة خرافية لم تُكْتَشَفْ بَعْدُ، وتُدْعَىٰ إلدورادو. فكان بالبوا واحداً من أوائل المغامرين الذين جاؤوا بحثاً عن أرض الذهب الكولومبوسيّة. وكان قد قرر منذ البداية أنه سيكون الشخصَ الذي يكتشفها عن طريق الصفاقة المحضة والتصميم العنيد. أَمَّا وقد تحرر من دائنيه، فلن يوقفه شيء.

الضفدعتان

سكنت ضفدعتان في البركة نفسها، ولكنها جفّت بفعل حرارة الصيف، فتركتاها وانطلقتا معًا للبحث عن سكن آخر. وأثناء بحثهما مرّتا صدفةً ببئر عميقة فيها ماء وفير. وعندما شاهدتاها قالت إحداهما للأخرى: «فلننزل ونجعل سكننا في هذه البئر؛ لأنها ستقدم لنا

ولسوء حظه، فإن صاحب السفينة، وهو قاضٍ غنيٌّ يدعى فرانسيسكو فرناندیز دي إنصيصو، ثارت ثائرته عندما علم بخبر الراكب الهارب، وأمر بترك بالبوا على أول جزيرة يمرّون بها. غير أنهم قبل أن يعثروا على أي جزيرة تلقى إنصيصو خبراً بأن المستعمرة التي كان عليه أن ينقذها قد هُجِرَتْ. فكانت هذه فرصة بالبوا. فأخبر البحارة عن رحلاته السابقة إلى بنما وعن الإشاعات التي سمعها عن وجود الذهب

في تلك المنطقة. فأقنع البحارة المتحمسون إنصيصو بالإبقاء على حياة بالبوا، وبتأسيس مستعمرة في بنما. وبعد أسابيع أطلقوا على مستوطنهم الجديدة اسم «دارْيِينْ».

وكان أول حاكم لداريين هو إنصيصو. ولكن بالبوا لم يكن بالرجل الذي يدع الآخرين يسرقون زمام المبادرة. فشن حملة ضد إنصيصو في أوساط البحارة، الذين أوضحوا في خاتمة الأمر أنهم يفضلون بالبوا كحاكم. فهرب إنصيصو إلى إسبانيا خوفاً على حياته. وبعد شهور، عندما وصل ممثل للتاج الإسباني ليثبّت نفسه بصفته حاكماً رسمياً جديداً لداريين، أُعيد من حيث أتى. وفي رحلة عودته إلى إسبانيا غرق هذا الرجل، وكان غرقه حادثاً مفاجئاً. ولكن بموجب القانون الإسباني، فإن بالبوا قد اغتال الحاكم واغتصب منصبه.

وكان تبجح بالبوا بالشجاعة قد أنقذه من الورطات والمآزق في الماضي. أما الآن فقد بدا أن أحلامه بالثروة والمجد قد حكم عليها بالإخفاق. فلكي يضع يده على إلدورادو ـ هذا إذا اكتشفها ـ فسيكون بحاجة إلى موافقة الملك الإسباني، وهي موافقة لن يحصل عليها قطّ باعتباره خارجاً عن القانون. فكان هناك حلّ واحد فقط. فقد أخبر الهنود البَنَميّون بالبوا عن محيط شاسع على الجانب الآخر لبرزخ أميركا الوسطى، وقالوا له إنه إذا اتجه إلى الجنوب على هذا الساحل الغربيّ، فسوف يصل إلى أرض الذهب الخرافية، التي أطلقوا عليها اسماً رَنَّ في أذنيه بما يشبه «بيرو». فقرر بالبوا أن يعبر غابات بنما الغدّارة ليصبح أول أوروبي تستحم قدماه في هذا المحيط الجديد. ومن هناك سيزحف إلى إلدورادو. فإن فعل ذلك نيابة عن إسبانيا، فسوف يكسب عرفان الملك إلى الأبد ويؤمّن إنقاذ نفسه ـ فكان عليه فقط أن يتحرك ويعمل قبل أن تأتي السلطات الإسبانية لاعتقاله.

وهكذا انطلق بالبوا في سنة 1513، مع مائة وتسعين جندياً. وفي منتصف الطريق عَبْرَ البرزخِ (الذي كان عرضه حوالى تسعين ميلاً عند

المأوى والغذاء»، فردت عليها الأخرى بحذرٍ أكبر: «ولكن افترضي أن الماء قد خذلنا، فكيف سنخرج عندئذٍ من مثل هذا العمق الكبير؟».

لا تفعل شيئًا دون النظر في العواقب.

خرافات

إيسوب، القرن السادس قبل الميلاد

1831-1780

تلك النقطة)، لم يبق معه سوى ستين جندياً، إذْ سقط معظمهم ضحية الأحوال القاسية ـ من الحشرات المصاصة للدماء، إلى الأمطار الغزيرة كالسيول الجارفة، والحمّى. وأخيراً، من على قمة جبل أصبح بالبوا أولَ أوروبيّ تقع عيناه على المحيط الهادي. وبعد أيام زحف بدرعه إلى داخل مياهه، رافعاً علم قشتالة، ومدعياً ملكيّة كلّ بحاره، وأراضيه، وجزره باسم التاج الإسبانيّ.

واستقبل هنود المنطقة بالبوا بهدايا من الذهب والجواهر واللآلىء النفيسة التي لم يَرَ مثلها في حياته. وعندما سألهم من أين جاءت تلك الهدايا، أشاروا إلى الجنوب، إلى أراضي قبائل الإِنْكَا. ولكن بالبوا لم يكن قد بقي لديه سوى عدد ضئيل من الجنود. فقرر أن يعود مؤقتاً إلى داريين، وأن يرسل الجواهر والذهب إلى إسبانيا كبادرة حسن نية، ويطلب جيشاً كبيراً لمساعدته على غزو إلدورادو.

وعندما وصلت أخبار عبور بالبوا الجريء للبرزخ، واكتشافه للمحيط الغربيّ، وغزوه المزمع لإلدورادو، صار المجرم السابق بطلاً. فتمَّ تنصيبه على الفور حاكماً للأرض الجديدة. ولكن قبل وصول خبر اكتشافه هذا، كان الملك والملكة قد أرسلا (دزينةً) من السفن الحربية، تحت إمرة رجل يدعى بيدرو آرياس دافيلا (بيدراریاس) ومعه أوامر بالقبض على بالبوا بتهمة القتل، وبأن يتولى دافيلا حكم المستعمرة. وما إن وصل إلى بنما حتى علم بأنه قد تمَّ العفو عن بالبوا، وأن عليه أن يتقاسم حكم المستعمرة مع المجرم السابق الخارج على القانون.

ومع ذلك فقد شعر بالبوا بالقلق. كان الذهب هو حلمه، وإلدورادو هي رغبته. وفي متابعة هذا الهدف كاد يموت مرَّات كثيرة. ولم يكن يطيق أن يتقاسم الثروة والمجد مع قادم جديد. كما أنه سرعان ما اكتشف أن بيدراریاس رجل غيور مرير، وغير سعيد بهذا الوضع مثله. ومرَّة أخرى، كان الحلّ الوحيد أمام بالبوا هو الإمساك بزمام المبادرة باقتراح عبور الغابة بجيش أكبر من ذي قبل، يحمل الأدوات والمواد لبناء

انظر إلى النهاية، مهما كان الشيء الذي تفكر فيه. فكثيرًا ما يعطي الله رجلاً ما لمحة من السعادة، ومن ثم يدمِّره تدميرًا تامًا.

التواريخ

هيرودوتس، القرن الخامس قبل الميلاد

هناك حديث نبوي شريف عن الرجل يعيش حياة سعيدة طويلة فيُغْمسُ في جهنم غمسةً واحدةً يوم القيامة ثم يُخْرجُ منها فيُسْأل: «هل رأيت نعيمًا قطّ؟» فيقول: لا! والرجل يعيش حياة مليئة بالألم والعذاب فيُغْمسُ في الجنّة غمسةً واحدةً يوم القيام، ثم يُخْرجُ منها فيُسْأل: «هل رأيت بؤسًا قطّ؟» فيقول: لا!

ويقول الإمام عليّ كرّم الله وجهه: «الغنى والفقر... بعد العرض على الله!».

[المترجم]

الملك والصوفي، والجرّاح

يحكى أن ملك بلاد التتر في قديم الزمان خرج يتمشى مع بعض رجاله النبلاء. وكان على جانب الطريق رجل من الأبدال (صوفي متجوّل) [بل الأبدال جماعة من الصوفية، مقامهم دون مقام القطب أو الولي، وعددهم أربعون لا

السفن. وعند الوصول إلى ساحل المحيط الهادي سيخلق أسطولاً ضخماً (أرمادا) يغزو به الإنكا. ولدهشته الكبيرة، وافق بيدرارياس على الخطة ـ ولعلَّه أحسَّ بأنها لن تنجح قطّ. ومات كثيرون من الرجال خلال هذا الزحف الثاني عبر الغابة. وتعفَّن الخشب الذي كانوا يحملونه في الأمطار الجارفة. وكالمعتاد، فإن ذلك لم يُخِفْ بالبوا ـ فلن تستطيع أي قوة في العالم أن تحبط خطته. وعندما وصل إلى المحيط الهادي بدأ بقطع الأشجار للحصول على أخشاب جديدة. ولكن الرجال الذين بقوا له كانوا أقل وأضعف من أن يشنوا غزواً. ومرَّة أخرى اضطرَّ بالبوا إلى العودة إلى داريين.

وعلى أية حال، كان بيدرارياس قد دعا بالبوا للعودة كي يناقش معه خطة جديدة. وفي ضواحي المستوطنة، لقيه فرانسيسكو بيزارو، صديقه القديم الذي صحبه في العبور الأول للبرزخ. ولكن ذلك كان فخّاً: كان بيزارو على رأس مائة جندي، فطوَّق صديقه السابق وألقى القبض عليه وأعاده إلى بيدرارياس، الذي حاكمه بتهمة التمرد. وبعد بضعة أيام، سقط رأس بالبوا في سلَّة، ومعه رؤوس أكبر أتباعه الموثوقين. وبعد سنوات، وصل بيزارو نَفْسُهُ إلى بيرو. وابتلع النسيان أعمال بالبوا.

التفسير

معظم الرجال تحكمهم قلوبُهم، لا رؤوسُهم. فخططهم غامضة، وعندما يواجهون عقبات، يرتجلون لها حلولاً ملفَّقة كيفما اتفق. ولكن الارتجال لن يزيد على إيصالك إلى الأزمة التالية، وهو ليس أبداً بديلاً للتفكير سلفاً بعدة خطوات، وللتخطيط حتى النهاية.

كان بالبوا يحلم بالمجد والثروة، ولديه خطة غامضة لتحقيق حلمه. ومع ذلك فإن أعماله الجريئة، واكتشافه للمحيط الهادي، قد نُسِيتْ إلى حدٍّ كبير، لأنه ارتكب ما يعرف في عالم السلطة بالخطيئة النهائية العظمى: فقد قطع جزءاً من الطريق، تاركاً الباب مفتوحاً لآخرين

تخلو منهم الأرض، فكلما مات واحد منهم حلّ محله آخر، حتى يلقوا الله وهم ثابتون على إيمانهم، ويقال إنهم –أو جلّهم– في بلاد الشام: [المترجم] فصاح البدل: «من يعطيني منكم مئة دينار فسأقدم له نصيحة طيبة» فتوقف السلطان وقال: «ما هذه النصيحة الطيبة التي ثمنها مئة دينار، أيها البدل؟» فأجاب: «أيها السيِّد، مُرْ بدفع المال إليّ وسأعرفك بها على الفور». ففعل الملك وهو يتوقع أن يسمع شيئًا خارقًا للعادة فقال الدرويش: «نصيحتي هي هذه: لا تبدأ شيئًا إلا بعد أن تفكّر فيما ستكون نهايته». وعندئذ ضحك النبلاء والحاضرون جميعًا. قائلين إن البدل كان حكيمًا عندما طلب المال سلفًا. ولكن الملك قال لهم: «ليس لديكم سبب للضحك على النصيحة الطيّبة التي قدمها لي هذا البدل. فلا أحد يجهل حقيقة أننا ينبغي أن نفكر جيّدًا قبل أن نشرع في أي عمل. ولكننا مذنبون يوميًا بعدم تذكر ذلك، والعواقب وخيمة. إنني أقدر نصيحة هذا الدرويش تقديرًا عاليًا».

وقرر الملك أن يبقي تلك النصيحة ماثلة في ذهنه على الدوام. وأمر بأن تكتب بماء

كي يتولّوا الأمور. إن رجل السلطة الحقيقي كان سيملك من التعقل ما يجعله يرى الأخطارَ على مبعدة قبل الوصول إليها ـ والمنافسين الذين سيرغبون في مشاطرته غزواته، ونسورَ الجيف التي ستحوم حوله عند سماع كلمة «ذَهَبِ». لقد كان على بالبوا أن يبقي معرفته بالإنكا سرّاً إلى ما بعد غزوه لبيرو. إذ أن ثروته، ورأسه، لن يكونا سليمين إلاّ عندئذٍ. أما وقد وصل بيدارياس إلى المسرح، فإن أي رجل سلطةٍ وتَعَقُّل كان سيخطِّط لقتله أو لحبسه، والسيطرة على الجيش الذي جاء به لغزو بيرو. ولكن بالبوا كان منغلقاً على نفسه في متطلبات كل لحظة بلحظتها، ويتصرَّف دائماً بردود فعل عاطفية، دون أن يفكِّر بشكل مسبق على الإطلاق.

ما الفائدة من امتلاك أعظم حُلُمٍ في العالم، إذا حَصَدَ الآخرون الفوائد والأمجاد؟ إياك وفقدان رأسك على حُلمٍ غامض مفتوح النهايات. خطِّط إلى النهاية.

مراعاة القانون

في سنة 1863، قام رئيس وزراء بروسيا، أوتو فون بسمارك، باستعراض رقعة شطرنج القوى الأوروبية كما كانت عليه آنذاك. وكان اللاعبون الرئيسيون هم إنكلترا، وفرنسا، والنمسا. وكانت بروسيا نفسها واحدة من دول عديدة في الاتحاد الألماني المهلهل التحالف. وكانت النمسا، العضو المهيمن على التحالف، حريصة على إبقاء الدويلات الألمانية الأخرى ضعيفة، ومنقسمة، وخاضعة. وكان بسمارك يؤمن أن من المقدَّر لبروسيا أن تكون شيئاً أعظم بكثير من مجرَّد صبي خادم للنمسا.

وقد مارس بسمارك اللعبة بهذه الطريقة: كانت حركته الأولى هي شن حرب على الدانمرك الضعيفة المتواضعة لاستعادة الأراضي البروسية السابقة في شيلزفيغ ـ هولشتاين. وكان يعلم أن دمدمات الاستقلال

الذهب على الجدران، بل وأن تُحْفرَ حفرًا على طبقه الفضّي. ولم يمضِ وقت طويل بعد ذلك حتى رغب متآمرٌ في قتل الملك. فقدم رشوة وعدٍ بالتعيين في منصب رئيس الوزراء للجرّاح الملكي إذا غرس مبضعًا مسمومًا في ذراع الملك. وعندما حان وقت فصد الملك، جيء بإناء فضّي لتلقي الدم المفصود. وفجأة انتبه الجرّاح إلى الكلمات المحفورة عليه: «لا تبدأ شيئًا إلاّ بعد أن تفكر فيما ستكون نهايته». وعندئذ فقط أدرك أن المتآمر إذا صار ملكًا فإنه سيأمر بقتل الجراح حالاً، وعندئذٍ لن يكون مضطرًا للوفاء بالتزامه في الصفقة. وعندما رأى الملكُ الجراح يرتجف سأله عمّا دهاه. وهكذا اعترف بالحقيقة في تلك اللحظة نفسها. فألقي القبض على المتآمر. وأرسل الملك في استدعاء جميع الذين كانوا حاضرين عندما قدم له البدلُ النصيحة، وقال لهم: «ألا تزالون تضحكون من الدرويش؟».

قافلة الأحلام

إدريس شاه، 1968

البروسية هذه قد تقلق فرنسا وإنكلترا، وهكذا جنَّد النمسا وأشركها في الحرب زاعماً أنه يستعيد شيلزفيغ ـ هولشتاين لمصلحة النمسويين. وفي غضون أشهر قليلة حُسِمَت الحرب. فطالب بسمارك بجعل الأراضي المفتوحة حديثاً جزءاً من بروسيا. فثارت ثائرة النمسويين بالطبع، ولكنهم توصلوا إلى تسوية، فوافقوا أولاً على إعطاء شيلزفيغ للبروسيين، وبعد سنة باعوهم هولشتاين. فبدأ العالم يرى أن النمسا آخذة في الضعف وأن بروسيا آخذة في الصعود.

وكانت حركة بسمارك التالية هي الأجرأ: ففي سنة 1866، أقنع ملكَ بروسيا، وليام، بالانسحاب من الاتحاد الألماني، وبأن يشن الحرب بعمله هذا على النمسا نفسها. وأبدت زوجة الملك وليام، وابنه ولي العهد، وأمراء الممالك الألمانية الأخرى، معارضةً عنيفةً لمثل هذه الحرب. ولكن ذلك لم يخوِّف بسمارك، الذي نجح في فرض النزاع، فتغلَّب جيش بروسيا المتفوِّق على النمسويين في حرب الأسابيع السبعة الوحشية القصيرة. وعندئذ أراد الملك والجنرالات البروسيون أن يزحفوا إلى ڤيينا، وأن يستولوا على أكبر مساحة ممكنة من أراضي النمسا. ولكن بسمارك أوقفهم ـ وقدَّم نفسه على أنه مؤيِّد للسلام. وكانت النتيجة أنه استطاع أن يعقد معاهدة مع النمسا تمنح بروسيا والدويلات الألمانية الأخرى حكماً ذاتياً تاماً وكلِّياً. وعندئذٍ تمكَّن من فرض بروسيا في مركز القوة المسيطرة في ألمانيا وعلى رأس اتحاد كونفدرالي جديد تكوَّن في شمال ألمانيا.

إن منْ يسأل العرافين عن المستقبل إنما يتخلى عن غير قصد عن حدسٍ داخلي بالأحداث القادمة هو أدقّ وأضبط بألوف المرّات من أي شيء قد يقوله له المنجمون.

والتر بنيامين

1940–1892

وبدأ الفرنسيون والإنكليز يقارنون بسمارك بآتيلا، زعيم قبائل الهون الجرمانية القديمة، ويخشون أن تكون لديه مخطَّطات تآمرية على أوروبا كلها. فعند بدء سيره على طريق الغزو، لم يعد أحد قادراً على معرفة أين سيتوقَّف. وبالفعل فقد أثار بسمارك حرباً مع فرنسا بعد ذلك بثلاثة أعوام. فقد بَدَا أولاً وكأنه يعطي الإذن بإلحاق بلجيكا بفرنسا، ثم غيَّر رأيه في اللحظة الأخيرة. وراح يلعب لعبة القط والفأر حتى أثار ثائرة

الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث، وحرَّض ملكه هو ضد الفرنسيين. ولم يستغرب أحد عندما اندلعت الحرب في سنة 1870. فانضم الاتحاد الألماني الحديث التكوين إلى الحرب على فرنسا بحماس. ومرة أخرى حطَّمت آلةُ الحرب البروسية وحلفاؤها جيشَ العدو في غضون أشهر. ورغم أن بسمارك كان يعارض احتلال أي أرض فرنسية، فقد أقنعه جنرالاته بأن الألزاس ـ اللورين ستصبح جزءاً من الاتحاد.

وعندئذٍ بدأت أوروبا كلها تخشى من الحركة التالية للوحش البروسي، الذي يقوده بسمارك، «المستشار الحديدي». والواقع أن بسمارك أسَّس الإمبراطورية الألمانية بعد ذلك بعام، وتوّج ملك بروسيا إمبراطوراً، وصار بسمارك نفسُه أميراً. ولكن حدث بعدئذٍ شيء غريب: فلم يعد بسمارك يثير مزيداً من الحروب. وبينما كانت القوى الأوروبية الأخرى تختطف الأراضي للاستعمار في قارات أخرى، فقد قيَّد اكتسابَ ألمانيا للمستعمرات تقييداً قاسياً. إذ أنه لم يكن يريد مزيداً من الأراضي لألمانيا، بل مزيداً من الأمن. وظل طيلة حياته الباقية يناضل للحفاظ على السلم في أوروبا ولمنع المزيد من الحروب. وافترض الجميع أنه قد تغيَّر، ولطفت حدَّته سنواتُ التقدُّم في العمر. لقد فشلوا في فهمه. فقد كانت تلك آخر حركة في خطته الأصلية.

التفسير

هناك سبب بسيط يجعل معظم الناس لا يعرفون متى يتوقفون عن الهجوم. فهم لا يكوِّنون فكرة ملموسة عن هدفهم. فما أن يحققوا نصراً حتى تنفتح شهيتهم للمزيد. ويكاد التوقف ـ أي استهداف هدفٍ مَّا تم الالتزام به والتوقف عنده ـ يكون شيئاً غير إنساني في الواقع. إن الشخص الذي يذهب إلى أبعد من اللازم في انتصاره يخلق ردَّ فعل يؤدي إلى الأفول بشكل محتوم. والحل الوحيد هو التخطيط للمدى البعيد. فَتَنَبَّأْ بالمستقبل بوضوح يعادل وضوح نبوءات الآلهة على جبل الأولمب، الذين ينظرون من خلال الغيوم فيرون نهايات كل الأشياء.

لقد كان لبسمارك هدف واحد منذ بداية حياته العملية: هو تشكيل دولة ألمانية مستقلة تقودها بروسيا. فقد أثار الحرب مع الدانمرك لا لغزو الأراضي، بل لتحريك القومية البروسية وتوحيد البلاد. ولم يحرض على الحرب مع النمسا إلاّ ليكسب الاستقلال البروسي. (ولهذا رفض الاستيلاء على أراضٍ نمسوية). وأثار الحرب مع فرنسا ليوحّد الممالك الألمانية ضد عدوٍّ مشترك، ومن ثم ليهيّىء لتشكيل ألمانيا موحدة.

وما إن تحقق ذلك حتى توقف بسمارك. فلم يدع النصر يدير رأسه، ولم يخضع لإغراء المناداة بالمزيد، بل أمسك باللجام بإحكام، وكلما طالب الجنرالات، أو الملك، أو الشعب البروسي بفتوحات جديدة، كان بسمارك يصدّهم. إذْ أنه لم يُرِدْ أن يسمح لشيء بإفساد جمال ما خَقَّقَ، ولم يرد أن يأتي هذا الإفساد بالتأكيد عن طريق الخِفّة التي كانت تدفع مَنْ حَوْلَهُ إلى محاولة تجاوز الغاية التي خطّط لها بكل تلك العناية.

تُبيِّن التجربةُ أن المرء إذا استشف من بعيدٍ الخططَ التي سيتم الاضطلاع بها، فإنه يستطيع التصرف بسرعة عندما تحين لحظة تنفيذها.

(الكردينال ريشيليو، 1585-1642)

مفاتيح السلطة

حسب علم الكونيّات عند الإغريق الأقدمين، كان من المعتقَد أن الآلهة لديهم رؤية كاملة في أعماق المستقبل، فكانوا يرون كل ما هو قادم، تماماً حتى التفاصيل الدقيقة. أما البشر، من جهة أخرى، فكان يُنْظَرُ إليهم على أنهم ضحايا القدر، محبوسون في لحظتهم الآنيّة وفي عواطفهم، عاجزون عن رؤية ما هو أبعد من الأخطار الداهمة. أما الأبطال ـ مثل أوديسوس ـ الذين استطاعوا أن ينظروا إلى ما يتجاوز الحاضر، وأن يخططوا لعدة خطوات سلفاً، فقد بَدَوْا كأنهم يَتَحَدَّوْنَ

القدرَ، ويقاربون الآلهة في قدرتهم على البتّ في المستقبل. ولا تزال هذه المقارنة صحيحة ـ إذ إن الذين يخططون من بيننا بصورة مسبقة، ويصبرون حتى تثمر خططهم يبدون وكأنهم يملكون سلطة شبه إلهية.

ونظراً لأن معظم الناس حبيسون في لحظتهم الآنيّة بحيث لا يخططون بهذا النوع من بعد النظر، فإن القدرة على تجاهل الأخطار والمسرّات المباشرة تترجم إلى سلطة. إنها سلطة القدرة على التغلب على ميل البشر إلى إبداء رد الفعل تجاه الأشياء عند حدوثها. وسلطة تمرين المرء نفسه بدلاً من ذلك على الابتعاد إلى الوراء، وتخيل أشياء أكبر تتشكل فيما وراء رؤية المرء المباشرة. فمعظم الناس يعتقدون أنهم واعون بالمستقبل في الواقع، وأنهم يخططون ويفكّرون بشكل مسبق. غير أنهم واهمون في ذلك في العادة. فما يفعلونه في الحقيقة هو الاستسلام لرغباتهم، ولما يريدون أن يكون عليه المستقبل. فخططهم غامضة، ومبنيّة على تخيلاتهم بدلاً من واقعهم. وقد يعتقدون أنهم يفكّرون على طول الطريق حتى النهاية، ولكنهم في الحقيقة لا يركزون إلاّ على لمسة الختام السعيد، فيخدعون أنفسهم بقوة رغبتهم.

في سنة 415 ق .م، هاجم الأثينيون القدامى صقلية، معتقدين أن حملتهم ستأتيهم بالثروة، والسلطة، والإنهاء السعيد للحرب البيلبونيزية التي كانت قد طالت ستة عشر عاماً حتى ذلك الحين. فلم يفكروا في أخطار قيامهم بغزو بعيد عن وطنهم إلى هذه الدرجة؛ ولم يتنبأوا بأن الصقليين سيقاتلون بطريقة أشرس من المتوقع بكثير لأن المعارك تدور في وطنهم، ولا بأن جميع أعداء أثينا سيتحدون ضدهم، ولا بأن الحرب ستندلع على جبهات عديدة، تجعل توزيع قواتهم واهياً ورقيقاً بصورة مفرطة. وهكذا كانت الحملة الصقلية كارثة كاملة، أدت إلى تدمير واحدة من أعظم الحضارات في التاريخ كله. وقد جرّت الأثينيين قلوبُهم

إلى هذه الكارثة، وليس عقولهم. فلم يروا سوى فرصة المجد، وليس الأخطار التي كانت تلوح في الأفق.

وقد حلل هذه الظاهرةَ الكردينالُ رِيتْزْ الفرنسي الذي عاش في القرن السابع عشر، وكان يفتخر برؤيته المعمقة للخطط الإنسانية ولماذا تفشل في معظم الحالات. وفي سياق تمرد تَزَعَّمَهُ ضد الملكية الفرنسية سنة 1651، كان الملك الشاب لويس الرابع عشر قد غادر باريس مع بلاطه فجأةً، واستقر في قصر خارج العاصمة. فقد كان وجود الملك قريباً من قلب الثورة إلى هذا الحدّ عبئاً هائلاً على الثوار، فتنفسوا الصعداء. غير أن ذلك قد ثبت أنّ فيه سقوطهم، إذْ أن غياب البلاط من باريس أعطاه مجالاً للمناورة أكبر بكثير من ذي قبل. وقد كتب الكردينال دي ريتْزْ فيما بعد: «إن أكثر الأسباب شيوعاً لأخطاء الناس في العادة هو خوفهم من الخطر الراهن، وعدم خوفهم بما فيه الكفاية من الخطر البعيد».

وكم من الأخطاء نتجنبها إذا استطعنا أن نرى الأخطار البعيدة التي تلوح في الأفق وهي آخذة في التشكل. وكم من الخطط سنجهضها في الحال إذا أدركنا أننا لا نتفادى خطراً صغيراً إلاَّ لنقع في خطر أكبر منه. إن الجزء الأكبر من السلطة لا يكمن فيما تفعله، بل فيما لا تفعله. ـ في الأعمال المتهورة والحمقاء التي تمتنع عنها قبل أن توقعك في المتاعب. فخطّطْ بالتفصيل قبل أن تتصرف ـ ولا تدع الخطط الغامضة تودي بك إلى المتاعب. هل ستؤدي هذه الخطة إلى عواقب غير مقصودة؟ هل سأثير ضدي أعداءاً جديدين؟ هل سيستفيد شخص آخر من جهودي؟ إن الخواتيم غير السعيدة أكثر شيوعاً من السعيدة ـ فلا تجعل هواك مع الخاتمة السعيدة التي يتخيلها ذهنك يميل برأيك ويسيطر عليك.

لقد تحولت انتخابات سنة 1848، في فرنسا إلى صراع بين لويس آدولف ثيير، رجل النظام، والجنرال لويس يوجين كافيناك، مثير الرعاع

اليمينيّ. وعندما أدرك ثيير أنه متخلف بشكل لا أمل معه في هذا السباق المرتفع الثمن، بحث بشكل يائس عن حل. فوقعت عينه على لويس بونابرت، حفيد شقيق الجنرال العظيم نابليون، ونائب متواضع في البرلمان. وكان هذا البونابرت يبدو أن فيه شيئاً من البَلَه. ولكن اسمه وحده يستطيع أن يجعله يفوز في الانتخابات في بلد متشوّق إلى حاكم قوي. فسوف يصبح دميةً في يدي ثِيِيرْ، ثم يقذف به خارج المسرح في آخر الأمر. وقد نجح الجزء الأول من الخطة نجاحاً كاملاً... وتم انتخاب لويس بونابرت بأغلبية كبيرة. وكانت المشكلة هي أن ثيير لم يتنبأ بحقيقة بسيطة واحدة: هي أن ذلك «الأبله» كان رجلاً له طموح هائل. فبعد ثلاثة أعوام حلّ البرلمان، وأعلن نفسه إمبراطوراً، وحكم فرنسا ثمانية عشر عاماً أخرى، مما أرعب ثِيِيرْ وحزبه.

إن الإنهاء هو كل شيء. إنّ نهاية العمل هي التي تقرر من سيحصل على المجد، والمال، والجائزة. فاختتامك لعملك يجب أن يكون شفاف الوضوح، وعليك أن تبقي ذلك ماثلاً في ذهنك. كما أن عليك أن تفكر في كيفية إبعاد نسور الجيف التي تحوم فوق رأسك، محاولةً أن تقتات على جثةٍ من صنعك. وعليك أن تتوقع سلفاً الأزمات الكثيرة المحتملة التي قد تغريك بالارتجال. وقد تغلب بسمارك على هذه الأخطار لأنه كان يخطط حتى النهاية، ويبقى سائراً على خطّه وفي طريقه المرسوم خلال كلّ أزمة، ولم يسمح للآخرين قطّ أن يسرقوا المجد. وعندما كان يصل إلى هدفه، كان يتراجع إلى داخل قوقعته كالسلحفاة. فهذا النوع من ضبط النفس شبه إلهي.

عندما ترى عدة خطواتٍ مسبقاً، وتخطِّط تحركاتك طوال الطريق حتى النهاية، فلن تعود معرضاً لإغراء عاطفتك أو للرغبة في الارتجال. فوضوحك يخلّصك من القلق والغموض اللذين هما السببان الأوّليّان لفشل كثيرين في إيصال أعمالهم إلى خاتمة ناجحة. إنك إذا رأيت الاختتام فإنك لن تتسامح مع أي انحراف.

صورة:
الآلهة على جبل
الأوليمب ينظرون إلى أعمال
البشر من على الغيوم. وهم يرون
سلفاً نهايات جميع الأحلام التي تؤدي إلى
الكارثة والمأساة. ويضحكون على عجزنا عن رؤية
ما وراء اللحظة الآنية، وعلى الكيفية التي نضلّل بها أنفسنا.

الشاهد: إن عدم الدخول أبداً من الأصل أسهل بكثير من إخراج نفسك! إن علينا أن نتصرف على عكس القصبة، التي ترفع بداية ظهورها ساقاً مستقيمة ولكنها فيما بعد، وكأنها أنهكت... تصنع عدة عقود كثيفة، مشيرة بذلك إلى أنها لم تعد تملك قوتها واندفاعها الأصليّين. فينبغي علينا أن نبدأ بلطف وبرود، موفرين جهدنا للمواجهة، وطعناتنا القوية لإنهاء المهمة. فالأمور في بداياتها تخضع لتوجيهنا وتقع تحت سيطرتنا، غير أنها عندما تنطلق في حركتها كثيراً ما تكون هي التي تقودها وتكتسحنا في مسارها (مونتين، 1533-1592).

الانقلاب

من المقولات المكررة بين المخطِّطين الاستراتيجيين أن خطتك يجب أن تشمل بدائل وأن تحتوي على قدر من المرونة. وهذا صحيح بالتأكيد. فإذا انحبست في خطة بشكل متزمت مفرط الجمود، فإنك ستعجز عن التعامل مع تقلبات الحظ المفاجئة. فعند تفحصك لاحتمالات المستقبل والبتّ في هدفك، يتعين عليك أن تبني البدائل وتفتح طرقاً جديدة نحو ذلك الهدف.

غير أن معظم الناس يخسرون من الإفراط في التخطيط ومن الجمود أقل مما يخسرونه بسبب الغموض والميل إلى الارتجال باستمرار

في مواجهة الظروف. فليس هناك من غرض حقيقي من التفكير في انقلاب يعكس تَوَجُّهَ هذا القانون، لأنه لا يمكن أن يأتي أي خير من رفض التفكير المسبق في المستقبل ببعد نظر، والتخطيط حتى النهاية. فإن كان تفكيرك واضحاً وبعيد النظر بما فيه الكفاية، فسوف تفهم أن المستقبل غير مؤكد ولا مضمون، وأن عليك أن تكون مستعداً للتكيف منفتحاً عليه. ولا يتيح لك هذه الحرِّيَّة إلاَّ هدفٌ واضح وتخطيط بعيد المدى.

القانون

30

اجعل منجزاتك تبدو بلا جهد

الحكم

ينبغي أن تبدو أعمالُكَ طبيعيةً، ومنفذةً بيسرٍ وراحةٍ. ويجب إخفاء كل الكدح والخبرة العملية الداخلة في تلك الأعمال، وكذلك الحيل البارعة. فعندما تتصرف، تصرف سهواً رهواً بلا جهد وكأن باستطاعتك أن تفعل أكثر من ذلك بكثير. تجنب إغراء الكشف عن مدى المشقة الجادّة التي تتجشّمها في عملك ـ لأن ذلك لا يزيد على إثارة التساؤلات. ولا تعلِّم حيلك أحداً من الناس، وإلاّ فإنها سوف تُسْتَخْدَمُ ضدك.

مراعاة القانون الأولى

لحفلة الشاي اليابانية المسماة «تشا ـ نو ـ يو» (الماء الحار للشاي) أصولٌ عريقةٌ في العصور القديمة. ولكنها وصلت إلى أوج رقّتها وصفائها في القرن السادس عشر، في أيام أشهر ممارسيها، صَنْ نُو رِيكْيُو. فعلى الرغم من عدم تحدره من عائلة نبلاء، فإنه صعد إلى سلطة عظيمة، فأصبح أستاذ الشاي المفضل للإمبراطور هيديوشي، ومستشاراً هاماً في القضايا الجمالية، وحتى السياسية. وبالنسبة لريكيو كان سر النجاح يتكون من الظهور بشكل طبيعي، وإخفاء المرء الجهدَ الكامن وراء عمله.

وذات يوم ذهب ريكيو وابنه إلى بيت أحد معارفه من أجل حفلة شاي. وفي طريقهما إلى الدخول، لاحظ الابن أن البوابة الجميلة التي تبدو عليها سيماء العراقة على مدخل بيت مضيفهما تعطي انطباعاً موحياً بالوحدة الموحشة. فقال الأب: «لا أعتقد ذلك، بل تبدو وكأنها جُلِبَتْ من معبد جبلي في مكان ناءٍ، وأن العمل الذي تطلبه جلبها لا بد أن يكون قد كلّف كثيراً من المال». فإذا كان صاحب البيت قد وضع هذا القدر من الجهد في بوابة واحدة، فسيظهر ذلك في حفلة الشاي عنده ـ وبالفعل اضطر صن نو ريكيو إلى مغادرة الحفلة في وقت مبكر، لعدم قدرته على تحمل التصنع، والجهد المتكلف الذي تكشفت عنه، بلا قصد.

كَانُو تانْيُو

الفنان الأستاذ

ذات مرة، استدعى ديتْ ماسامْيونُ الفنان تانيو ليزخرف له زوجًا من الستائر الذهبية طولهما سبعة أقدام. فقال الفنان: إنه يعتقد أن مخططات بالأبيض والأسود سوف تناسبهما، وعاد إلى بيته بعد أن تمّعّن فيهما جيّدًا. وفي صباح اليوم التالي جاء مبكرًا، وقد صنع كمية كبيرة من الحبر غمس فيها حدوة حصان كان قد أحضرها معه، ثم شرع يطبعها على إحدى الستارتين بكاملها. ثم رسم عبرها خطوطاً بفرشاة كبيرة. وفي تلك الأثناء حضر ماساميون للتفرج على عمله. فلم يستطع أن يسيطر على انزعاجه، فراح يدمدم: «يا له من خليط فوضوي بغيض!» ثم انفتل يخطو عائدًا إلى شقته. فأخبر الخدمُ تانيو أن سيدهم كان في مزاج سيّئ حقًا. فقال الرسّام: «إذن فما كان عليه أن يتفرج وأنا منهمك في عملي..

وذات أمسية أخرى، بينما كان ريكيو يتناول الشاي في بيت صديق له، لاحظ أن مضيفه ذهب إلى الخارج وحمل مصباحاً في الظلام، وقطف ليمونة من على شجرة، وجاء بها إلى الداخل. ففُتِنَ ريكيو بهذا العمل. كان المضيف يريد تتبيل طبق سيقدمه. فذهب إلى الخارج بعفوية ليحصل على الليمونة لهذا الغرض. ولكن عندما قدم الرجل الليمونة مع كعكة أوساكا مصنوعة من الرُّز، أدرك ريكيو أنه كان قد خطط لقطف الليمونة من البداية كي يقدمها مع هذه الأفاوية الغالية. فلم تعد الإشارة تبدو عفوية ـ بل كانت طريقة أراد المضيف بها إثبات براعته. وهكذا كشف فجأة وبلا قصد عن مدى المشقة التي تجشمها. وبعد أن رأى ريكيو ما فيه الكفاية، اعتذر بلباقة عن تناول الكعكة، واستأذن وغادر.

وخطَّط الإمبراطور هيديوشي ذات مرة لزيارة ريكيو من أجل حفلة شاي. وفي الليلة التي سبقت وقت مجيئه بدأ الثلج في الهطول. وفكر ريكيو بسرعة، فنشر وسادات وثيرة تنطبق بالضبط على كل واحد من حجارة العبور المؤدية عبر الحديقة إلى منزله. وقبيل الفجر نهض ورأى أن هطول الثلج قد توقف فأزاح الوسادات. وعندما وصل هيديوشي تعجب من الجمال البسيط للمشهد: ـ حجارة العبور التامة الاستدارة، التي لا يعيقها الثلج ـ ولاحظ كيف أنها لا تلفت النظر إلى الطريقة التي حقَّق بها ريكيو ذلك، بل تلفت النظر إلى الإشارة المهذبة ذاتها.

وبعد وفاة صُنْ نُو رِيكْيُو، تركت أفكارُهُ أثراً عميقاً على ممارسة حفلة الشاي. وكان طوكوغاوا شوغون يورينوبو، ابن الإمبراطور العظيم إياسو، تلميذاً لتعاليم ريكيو. وكان لديه في حديقته مصباح حجري صنعه أستاذ شهير. وذات يوم سأل اللورد ساكاي تادا كاتسو إن كان يستطيع أن يأتي ليراه. فردّ يورينوبو بأن ذلك سيشرّفه. وأمر العاملين في حدائقه أن يرتبوا كلَّ شيء من أجل الزيارة. وكان أولئك العاملون يجهلون مفاهيم تشا ـ نو ـ يو، فظنوا أن المصباح الحجري مشوه الشكل، وأن نوافذه أصغر من أن ترضي الذوق الراهن. فطلبوا من عامل

بل عليه أن ينتظر حتى أُنهي». ثم تناول فرشاة أصغر وأجرى بها لمساتٍ هنا وهناك، وبينما كان يفعل ذلك تحولت طبعات حدوة الحصان إلى سرطانات. بينما تحوّلت اللمسات الكبيرة العريضة إلى أسل (نبات أوراقه أسطوانية كالقصب). ثم اتجه إلى الستارة الثانية فرشقها بقطرات من الحبر غطّتها. وعندما أضاف إليها لمسات بفرشاته هنا وهناك تحولت إلى رفوف من السنونو، فوق شجراتٍ من الصفصاف. وعندما رأى ماساميون العمل عند انتهائه، كان فرحه الشديد ببراعة الفنان معادلاً لانزعاجه الشديد عندما لم يستطع أن يفهم البقع على الستائر.

شانويو – حفلة الشاي اليابانية

م.ل.سادلير، 1962

محلي أن يوسع النوافذ. وقبل بضعة أيام من زيارة اللورد ساكاي، كان يورينوبو يطوف في الحديقة. وعندما لاحظ النوافذ المتغيرة انفجر غضبه.. وكان مستعداً لأن يخوزق بسيفه، الأحمقَ الذي دمّر المصباح، فخرّب جماله الكيّس الطبيعي وحطم الغاية المقصودة كلها من زيارة اللورد ساكاي.

غير أنه عندما انفثأت (خَفَّتْ) حدة غضبه، تذكر أنه كان في الأصل قد اشترى اثنين من هذه المصابيح، وأن الثاني كان في حديقته في جزيرة كيشو. فاستأجر سفينة ضخمة لصيد الحِيْتَان بكلفة كبيرة، مع أعظم المجدفين الذين استطاع العثور عليهم، وأمرهم أن يحضروا له المصباح في غضون يومين. وهي مهمة صعبة حسب أفضل الأوصاف. ولكن الملاحين جدفوا ليلاً ونهاراً، وكان من حظهم أن هبت رياح مؤاتية طيبة فوصلوا في الوقت المناسب تماماً. ولسرور يورينوبو الشديد، كان هذا المصباح الحجري أروع من الأول، لأنه ظل واقفاً دون أن يلمسه أحد طيلة عشرين عاماً في خميلة خيزران، فحصل على مظهر عتيق رائع وغطاء رقيق من الطحالب. وعندما وصل اللورد ساكاي في وقت لاحق من ذلك اليوم نفسه، أشعره المصباح بالهيبة والرهبة، إذْ أنه كان أروع مما تصور. وكان رشيقاً ومتحداً مع عناصر الطبيعة من حوله. ولحسن الحظ لم تكن لديه فكرة عن الوقت والجهد اللذين تجشمهما يورينوبو لخلق هذا التأثّر الجليل المتسامي.

التفسير

عند صُنْ نُو رِيكْيُو، كانت قمة الجمال هي ظهور شيء مّا بشكل طبيعي وكونه رشيقاً بصورة عفوية تكاد تكون صدفة. فمثل هذا الجمال يأتي بدون إنذار ويبدو أنه لم يكلف أي جهد. فالطبيعة تخلق مثل هذه الأشياء بقوانينها وعملياتها الخاصة بها. ولكن البشر مضطرون إلى خلق تأثيراتهم عن طريق العمل والتدبير المفتعل. وعندما يكشفون الجهد الذي تجشموه لخلق التأثير، كان ذلك يفسد التأثير. فالبوابة جاءت من

أستاذ المصارعة

كان هناك ذات مرة أستاذ مصارعة يتقن 360 خدعةً وطريقة للإمساك بالخصم. وقد أحب واحدًا من تلاميذه بصورة خاصة، فعلمه 359 خدعةً منها على امتداد فترة من الزمن. وبطريقةٍ مّا، لم يصل به إلى الخدعة الأخيرة. ومع مضيّ الشهور اكتسب الشاب كفاءة في هذا الفن جَعلَتْهُ يبُزُّ أيَّ شخص يجرؤ على مواجهته في الحلبة.

مكان بعيد مفرط البعد، وقطف الليمونة بدا متكلفاً متصنعاً.

كثيراً ما يتعين عليك أن تستخدم الحيل وبراعة الإبداع لخلق تأثيراتك ـ كالوسائد في الثلج، والرجال الذين يجدفون بلا كلل طوال الليل ـ ولكن يجب أن لا يشكّ جمهورُك في الجهد أو التفكير الداخلَيْن في إنتاج تلك التأثيرات. فما يقلد الطبيعة بالظهور بمظهر الشيء الذي لا جهد فيه فإنه يقرب في قوته مما تبلغه الطبيعة.

مراعاة القانون الثانية

ذات مرة أعلن فنان الإفلات الكبير هاري هوديني عن عمله بوصفه «الممكن المستحيل» (وهذا يشبه ما يسميه العرب: السهل الممتنع ـ المترجم). والحق أن الذين شهدوا عمليات إفلاته الدراميَّة المفاجئة كانوا يشعرون أن ما يفعله على المسرح يناقض الأفكار البديهية المعروفة عن الطاقة البشرية.

وذات مساء في سنة 1904، كان جمهور من 4000 متفرج يملأ صالة المسرح لمشاهدة هوديني يقبل تحدياً: هو الإفلات من زوجٍ من القيود وُصِفَت بأنها أقوى الأغلال التي اُخْتُرِعَتْ. كان فيهما ستّ مجموعات من الأقفال، وتسع رِيَشٍ تطوق كل معصم؛ وكان صانعٌ من برمنغهام قد أمضى خمسة أعوام في تركيبها. وقال الخبراء الذين فحصوها إنهم لم يروا من قبل شيئاً بمثل ذلك التعقيد قطّ، وإن ذلك التعقيد كان يجعل الإفلات منها مستحيلاً باعتقاد أولئك الخبراء.

وراقب الجمهورُ الحاشدُ الخبراءَ وهم يثبون الأغلال في رسغي هوديني، ثم دخل فنان الإفلات خزانةً سوداء على المسرح. ومضت الدقائق. وكلما زاد مرور الوقت، كان يبدو بصورة متزايدة أن هذه الأصفاد ستكون هي أول ما قَهَرَ هوديني. وعند نقطة مّا برز من الخزانة وطلب إزاحة الأصفاد مؤقتاً ريثما يخلع سترته لأن الجوّ حارّ في الداخل. فرفض ذلك الذين كانوا يتحدونه، وشكّوا في كون طلبه خدعة

وصار يتباهى ببراعته الفائقة إلى درجة أنه تبجّح أمام السلطان بأنه يستطيع أن يتغلب على أستاذه بسهولة لولا احترامه لسنه وعرفانه لجميل تعليمه.

فغضب السلطان من قلة احترامه وأمر بإقامة مباراة في الحال بحضور البلاط الملكي. وعند قرع الجرس، اندفع الشاب إلى الأمام بصرخة متحمّسة، ولكنه صرعه بالخدعة الستين بعد الثلاثمئة. فأمسك الأستاذ بتلميذه السابق، ورفعه عاليًا فوق رأسه، ثم ألقى به في جلبة صاخبة عند ارتطامه بالأرض. فهتف السلطان وجموع الحاضرين بصوتٍ عالٍ. وعندما سأل السلطانُ الأستاذ كيف استطاع التغلب على مثل هذا الخصم القوي، فاعترف الأستاذ بأنه احتفظ لنفسه بأسلوب سرّيّ لمثل هذه الحالة بالذات. ثم حكى قصة آلام أستاذ الرماية الذي علّم تلاميذه كلّ شيء يعرفه. فكان المسكين يتذمّر: فلم يتعلم منه أحدٌ الرّماية إلا حاول أن يستخدمه كهدفٍ في آخر الأمر.

قصة من السعدي، كما هي مرويّة في حرفة السلطان ر.ج.هـ.سيو، 1979

كي يكتشف منها كيف تعمل تلك الأقفال. ولكنه لم يرتدع، وبدون أن يستخدم يديه استطاع أن يتدبر أمر رفع السترة فوق كتفيه، وقلبها على قفاها. ويخرج سكيناً صغيرة من جيب جلبابه بأسنانه، وبتحريك رأسه قَطَعَ السترة وفصلها عن ذراعيه. وبتحرير نفسه من السترة، خَطَا عائداً إلى داخل الخزانة، بينما كان صوت الجمهور يدوي بالموافقة على رشاقته وكياسته وبراعته.

وأخيراً، وبعد أن أبقى الجمهور ينتظر ما فيه الكفاية، برز من الخزانة مرة أخرى وقد تحررت يداه، ورفع الأصفاد عالياً بانتصارٍ ليراها الناس. وحتى يومنا هذا لا يعرف أحد كيف استطاع الإفلات. ورغم أنه استغرق ساعة تقريباً ليحرر نفسه، فلم يكن يبدو عليه القلق أبداً، ولم تظهر منه أي علامة على الشك. والحق أنه بدا في آخر الأمر أن هوديني قد أطال عملية الإفلات كطريقة لزيادة الإثارة والدراما، ولجعل الجمهور يقلق ـ لأنه لم يكن هناك إشارة أخرى سوى أن الأداء كان سهلاً ليس إلاَّ. وكان التذمر من الحَرّ جزءاً من التمثيلية. أما المشاهدون لهذا الأداء وغيره من أعمال هوديني، فلا بد أنهم شعروا أن هوديني يعبث بهم. وبَدَا كأنه يقول إن الأصفاد لا شيء، وإنه كان قادراً على الإفلات منها في وقت مبكر أكثر، بل والإفلات مما هو أسوأ منها بكثير.

وعلى مدى السنين، أفلت هوديني من جثة «وحش بحري» محنط (نصف أخطبوط، ونصف وحش كالحوت انغرس في رمال الساحل قرب بوسطن)؛ ووضع نفسه في ظرف مختوم هائل الحجم خرج منه دون أن يمزق الورق؛ واخترق جدراناً مصمتة من الآجرّ، وأفلت بالتلوّي من سترة مجانين مكتّفة له وهو يتدلى عالياً في الهواء، وقفز من على جسور إلى مياه مثلوجة بينما كانت يداه وساقاه مقيدة في الأغلال والسلاسل؛ وغطس نفسه في صناديق زجاجية مليئة بالماء ويداه مقيدتان، بينما المتفرجون يراقبونه وهو يحرر نفسه، ويناضل لمدة تقرب من الساعة دون أن يبدو عليه أنه يتنفس. وفي كل مرة كان يبدو عليه أنه

يتحرش بالموت ومع ذلك كان ينجو برباطة جأش فوق طاقة البشر. وفي أثناء ذلك كله لم يقل شيئاً عن أساليبه، ولم يقدم أي دليل على كيفية إنجاز حيله. وترك المشاهدين والنقاد يتكهنون، بينما راحت قوته وسمعته تتعاظمان من خلال صراعهم مع ما لا يمكن تفسيره. ولعل أكثر حيله إثارة للذهول كانت إخفاءه لفيل وزنه نصف طن أمام أعين المتفرجين. وهو إنجاز كرره على المسرح طيلة ما يزيد على تسعة عشر أسبوعاً. ولم يوضح أحد في الحقيقة كيف كان يفعل ذلك، لأن الصالة التي كان يمارس فيها خدعته لم يكن فيها ـ ببساطة ـ أي مكان يمكن أن يختفي فيه فيل.

إن عمليات إفلات هوديني بلا جهد قد جعلت البعض يظنون أنه كان يستخدم قوى سحرية، وأن قدراته الروحية كانت تمنحه سيطرة خاصة على جسمه. ولكن فنان إفلاتٍ ألماني يدعى كليبّيني زعم أنه يعرف سرّ هوديني: وهو أنه كان يستخدم أدوات معقدة. كما زعم كليبّيني أنه قد هزم هوديني في تحدٍّ للإفلات من أصفاد تقيّد المعصمين في هولندا.

ولم يكن هوديني يبالي بكل أنواع التكهنات التي انتشرت عن أساليبه، ولكنه لم يكن يتسامح مع أي كذبة سافرة، وفي سنة 1902، تحدى كليبّيني في مبارزة للإفلات من قيود معصم. فقبل كليبّيني التحدي. وعن طريق جاسوس، اكتشف الكلمة السريَّة لفتح زوج من قيود المعصمين الفرنسية ذات الأقفال التوافقية المركَّبة من حروف شيفرة من النوعية التي كان هوديني يحبّ استعمالها. وكانت خطته هي اختيار هذه القيود بالذات ليفلت منها على المسرح. وهذا سيكون من شأنه أن يفضح زيف هوديني ـ بإظهار كون «عبقريته» كامنةً ـ ببساطة ـ في استخدام أدوات ميكانيكية.

وفي ليلة التحدي، تماماً كما خطط كليبّيني، عرض عليه هوديني أن يختار من بين القيود. فانتقى القيود ذات القفل المركب الذي تفتحه

كلمة سرية. بل لقد تمكن من الاختفاء خلف ستارة لإجراء اختبار سريع، ثم برز بعد ثوانٍ وهو واثق من النصر.

وتصرف هوديني وكأنه أحس بوجود عملية احتيال، فرفض أن يصفّد هوديني بالأغلال. وتجادل الرجلان، وشرعا يتقاتلان، بل يتصارعان معاً على خشبة المسرح. وبعد بضع دقائق تخلى هوديني عن رفضه وبدا عليه أنه غاضب وخائب الأمل، فصفّد كليبّيني بالقيود. وعلى مدى الدقائق القليلة التالية بذل كليبّيني جهده لتخليص نفسه. كان هناك خطأٌ مّا ـ فقبل دقائق فقط كان قد فتح القيود وراء الستار، أما الآن فلم تعد الشيفرة نفسها تعمل. فتصبب عرقاً، وأجهد ذهنه، ومرت ساعات، وغادر المتفرجون الصالة، وأخيراً استسلم كليبّيني المرهَق الذليل وطلب فكّ إساره.

ذلك أن الأقفال التي فتحها كليبّيني خلف الستار بكلمة «C-L-E-F-S» (التي معناها «مفاتيح» باللغة الفرنسية) لم تعد تنفتح إلاّ بكلمة «F-R-A-U-D» (التي معناها «احتيال»). ولم يفهم كليبّيني كيف استطاع هوديني إنجاز هذا العمل الخارق، بتغيير شيفرة الأقفال.

التفسير

رغم أننا لا نعرف بالتأكيد كيف كان هوديني ينجز معظم عملياته الحاذقة بالإفلات، فإن هناك شيئاً واحداً واضحاً. لم يكن في عمله شيء من السحر والشعوذة أعطاه قواه. بل كان هناك عمل شاق وتدريب لا ينتهي، وقد استطاع أن يخفي ذلك عن العالم بعناية. فلم يكن هوديني يترك أي شيء للحظّ ـ بل كان منهمكاً في دراسة كيف تَعْمَلُ الأقفال ليلاً ونهاراً، وفي البحث في حيلٍ تدجيلية فيها خفة يد وعمرها قرون متطاولة، والعكوف على كتب عن الميكانيك، وأي شيء يستطيع استخدامه. وكل لحظة لم يصرفها في البحوث كان يصرفها في تدريب جسمه وإبقائه لدناً مرناً سهل التثنّي على نحو استثنائي، ويتعلم كيف يتحكم بعضلاته وبتنفسه.

تذكّرنا هذه القصة بقول الشاعر:

أعلمه الرماية كل يوم
فلما اشتدّ ساعده رماني
وكم علمتُهُ نظم القوافي
فلما قال قافية.. هجاني!

[المترجم]

أبْقِ مدى قدراتك غير معروف. فالرجل الحكيم لا يسمح لأحد بسبر غور معرفته وقدراته عن آخرها. بل يسمح لك بأن تعرفها ولكن لا يسمح لك بفهمها. فهو لا يدع أحدًا يعرف مدى قدراته، لئلا يصاب (العارف) بخيبة أمل. فلا يتيح لأحدٍ أبدًا فرصة سبر غوره بشكل كامل. لأن الحدس والتخمين والشكوك حول مدى مواهبه تولد تبجيلاً أكثر من المعرفة الدقيقة لتلك المواهب، مهما كانت عظيمة.

بلثازار غراسيان

1658-1601

وفي وقت مبكر من حياة هوديني العملية، تعلّم خدعةً قديمة من أستاذ ياباني عجوز كان يطوف معه: فتعلم منه كيف يبتلع كرةً من العاج ثم يتقيؤها. وقد تدرب على ذلك بصورة لا تنتهي، مستعملاً حبة بطاطا مقشرة مربوطة بخيط ـ فكان يتلاعب بها صعوداً ونزولاً بعضلات حنجرته، حتى بلغت تلك العضلات من القوة ما يكفي لجعلها تحرك حبة البطاطا بدون الخيط. وكان منظمو تحدي قيود المعصمين في لندن يفتشون جسمه سلفاً تفتيشاً كامل الدقة. ولكن لم يكن أحد قادراً على تفتيش حنجرته، حيث كان يستطيع إخفاء أدوات صغيرة تساعده على الإفلات. ومع ذلك فقد كان كليبّيني مخطئاً بصورة أساسية. فلم تكن أدوات هوديني هي التي تتيح له الإفلات، بل تدريبه، وعمله، وبحوثه.

والواقع أن كليبّيني قد لقي هزيمة كاملة في لعبة الذكاء والفطنة على يد هوديني، الذي رتب الأمر بكامله. فترك خصمه يتعلم كلمة السرّ للقيود الفرنسية، ثم استدرجه إلى اختيار تلك القيود بالذات على المسرح، ثم، خلال تصارع الرجلين، استطاع هوديني الماهر، أن يغير الشيفرة إلى كلمة F-R-A-U-D. وكان قد أمضى أسابيع بكاملها يتدرب على هذه الحيلة. ولكن المتفرجين لم يشاهدوا أياً من ذلك العرق والكدح وراء الكواليس. ولم يكن هوديني عصبياً أبداً. بل كان يجعل الآخرين عصبيّين.. (وكان يتعمد إطالة الوقت الذي يستغرقه الإفلات، كطريقة لرفع وتيرة الدراما المثيرة، وجعل المشاهدين يتململون). وكانت عمليات إفلاته من الموت رشيقةً وسهلة على الدوام، فجعلته يبدو إنساناً متفوقاً.

يجب عليك، باعتبارك شخصاً ذا سلطة، أن تبحث وتتدرب بصورة لا تنتهي قبل أن تظهر علناً للملأ، سواء على المسرح أم في أي مكان آخر، وإياك أن تفضح عرقك وكدحك الكامنين خلف موقفك العلنيّ. ويعتقد البعض أن مثل هذا الكشف سيظهر مثابرتهم وصدقهم ونزاهتهم، غير أنه في الواقع لا يزيد على جعلهم يبدون أضعف، أو كأن

أي شخص يتدرب ويعمل في ذلك المجال يمكنه أن يحقق ما حققوه، أو كأنهم ليسوا في الحقيقة أكفاء للمهمة. فاحتفظ بجهدك وأحابيلك لنفسك، وعنئذ ستبدو وكأنك تملك رشاقة أحد الآلهة ولياقته وتحرره من التكلف. ذلك أن المرء لا يرى مصدر سلطة الآلهة مكشوفاً، بل يرى تأثيراتها فحسب.

قد يستغرق نظمنا لبيتٍ واحد [من الشعر] ساعات؛ ومع ذلك فإنه إذا لم يظهر وكأنه فكرة خطرت لنا في لحظة، فإن رتقنا وتفكيكنا لأجزائه سيكون عبثاً كالعدم.

(لمسة آدم، تأليف: وليام بتلر ييتس، 1865-1939)

مفاتيح السلطة

إن أوّل أفكار الإنسانية عن السلطة جاءت من المواجهات البدائية مع الطبيعة ـ وميض البرق في السماء، والطوفان المفاجيء، وسرعة الحيوان المتوحش وضراوته. فهذه القوى لم تكن تتطلب تفكيراً، ولا تخطيطاً ـ، بل كانت تشعرنا بالرهبة والهيبة بظهورها المفاجيء، ورشاقتها، وسلطانها على الحياة والموت. ويظلّ هذا هو نوع السلطة الذي كنا دائماً نريد أن نقلده. وعن طريق العلم والتكنولوجيا استطعنا أن نعيد خلق سرعة الطبيعة وجلال سلطانها. ولكن هناك شيئاً مفقوداً. فمكائننا شديدة الضجيج والتقلب المتشنّج، وهي تكشف عن جهدها. وحتى أفضل منتجات التكنولوجيا كلها لا تستطيع أن تقتلع إعجابنا بالأشياء التي تتحرك بيسر وسهولة بلا جهد ولا تكلف. إن قدرة الأطفال على إخضاعنا لإرادتهم ناجم عن نوع من الفتنة الآسرة التي نشعر بها إزاء مخلوق أقل انغماساً في التفكير منّا وأكثر رشاقة. فنحن عاجزون عن العودة إلى مثل هذا الحال. ولكننا إذا استطعنا أن نخلق مظهر هذا النوع من اليسر، فإننا سنوحي للآخرين بنوع من الرهبة البدائية التي كانت الطبيعة دوماً توحي بها إلى البشر.

ومن أوائل الكتّاب الأوروبيين الذين بَسَطوا هذا المبدأ ودافعوا عنه، كاتب جاء من أكثر البيئات بعداً عن الطبيعة، من بلاط عصر النهضة. ففي **كتاب رجل الحاشية**، المنشور في سنة 1528، يصف بلثازار كاستيليوني الأساليب الشديدة التعقيد والمقنّنة لمواطن البلاط الأمثل. ومع ذلك، يتعين على رجل الحاشية ـ كما يوضح كاستيليوني ـ أن ينفذ هذه الإشارات بما يسميه بالإيطالية «سبريزاتورا»، أي (القدرة على جعل الصعب يبدو سهلاً). فهو يحثّ رجل الحاشية على أن «يمارس في كل الأشياء نوعاً معيناً من اللامبالاة يخفي كل التصنع ويجعل أي شيء يقوله المرء أو يفعله يبدو غير متكلف ويخرج منه بلا جهد». إننا جميعاً نعجب بإنجاز عمل غير عاديّ. ولكنه إذا تمّ بصورة طبيعية ولائقة في كياستها، فإن إعجابنا سيتضاعف عشر مرات ـ «بينما... يبيّن الجهد المبذول في العمل الذي يقوم به المرء، و... إظهار التفاخر بذلك أن هناك نقصاً شديداً في الكياسة، ويجعل كل شيء يتناقص، مهما كانت قيمته».

إن جزءاً كبيراً من فكرة «**سبريزاتورا**» قد جاء من عالم الفنّ. ذلك أنّ جميع فناني عصر النهضة العظام كانوا يعتنون بإخفاء عملهم تحت الأغطية. فلم يكونوا يسمحون بأن يعرض على الجمهور سوى التحفة الفنية المكتملة. وكان مايكل آنجيلو يمنع حتى البابوات من رؤية أعماله أثناء اشتغاله فيها. وكان فنان عصر النهضة حريصاً دائماً على إبقاء الاستديو الذي يعمل فيه مغلقاً أمام رعاته وأمام عامة الناس على حد سواء، ليس خوفاً من التقليد، ولكن لأن رؤية الاشتغال في الأعمال الفنية من شأنها أن تشوه سحر تأثيرها، وجوّ اليسر والسهولة والجمال الطبيعي الذي أضفته عليها الدراسة المضنية سراً.

وكان فاساري، رسام عصر النهضة، وأول ناقد فني عظيم، يسخر من أعمال باولو أوتشيلّو، الذي كان مهووساً بقوانين زاوية النظر. ذلك أن الجهد الذي كان أوتشيلّو يبذله في تحسين مظهر زاوية النظر كان

سافراً في أعماله بشكل مفرط ـ فكان يجعل رسومه قبيحة، ومفتعلة يغلب عليها الجهد المبذول لخلق تأثيراتها. فالاستجابة نفسها تتكون لدينا عندما نشاهد أداءً تمثيلياً يبذل فيه الممثلون جهداً مفرطاً: إذ إن رؤيتهم يتجشمون كل هذه المشقة في محاولاتهم تُبَدِّدُ الوهم (الذي يعيش فيه المتفرج). كما أنها تشعرنا بعدم الراحة. ومن جهة أخرى فإن الممثلين الهادئين اللبقين يجعلوننا نسترسل على سجيتنا، ويخلقون الوهم بأنهم لا يمثلون، بل يتصرفون بشكل طبيعي غير متصنّع، حتى عندما يكون كل ما يعملونه منطوياً على عمل وجهد وتدريب.

إن فكرة **سْبْرِيزَاتُورَا** (جعل الصعب يبدو سهلاً) لها صلة بكل أشكال السلطة، لأن السلطة تعتمد اعتماداً حيوياً على المظاهر، وعلى الأوهام التي تخلقها. فمنشوراتك تشبه الأعمال الفنية: يجب أن تكون لها جاذبية بصرية، وأن تخلق آمالاً وتطلعات، بل وتُمْتِعْ. أما عندما تكشف عن تفاصيل العمل الداخلية لإبداعك، فإنك تصبح مجرد إنسان عادي بين الآخرين، إذْ أن الشيء المفهوم لا يوحي بالهيبة ـ لأننا نقول لأنفسنا إننا نستطيع أن نعمل مثله لو كان لدينا الوقت والمال. فتجنّب إغراء استعراض مدى مهارتك ـ فإن الشيء الأبرع من ذلك بكثير هو إخفاء آليات براعتك.

ولقد أدى تطبيق تاليران لهذا المفهوم في حياته اليومية إلى تضخيم هالة السلطة المحيطة به بشكل كبير. فلم يكن يحب أن يشتغل بصورة مضنية على الإطلاق، وهكذا جعل الآخرين يشتغلون له، ويقومون بالتجسس، والبحث، والتحليل المفصّل. ومع وجود كل هذا العمل تحت تصرفه لم يكن يبدو عليه أي توتر أو إجهاد لنفسه. فعندما كان جواسيسه يكشفون له عن قرب وقوع حدث معين، كان يذكر في أحاديثه الاجتماعية أنه **يشعر** بقرب وقوعه. وكانت نتيجة ذلك أن الناس راحوا يظنون أنه يستشف الغيب. وكانت عباراته القصيرة المليئة باللبّ والفطنة والدعابة تبدو دائماً وكأنها تلخص الوضع تلخيصاً كاملاً. ولكنها كانت

تقوم على كثير من البحث والتفكير. وللمسؤولين الحكوميين، ومن ضمنهم نابليون نفسه، كان تاليران يعطي الانطباع بأن لديه سلطة هائلة ـ وكان ذلك أثراً يعتمد كلياً على اليسر الظاهر الذي كان يحقق فيه منجزاته.

وهناك سبب آخر لجعلك تخفي طرقك المختصرة وأحابيلك: وهو أنك عندما تترك هذه المعلومات تخرج إلى العلن فإنك تعطي الناس أفكاراً يمكن أن يستخدموها ضدك، فَتَفْقِدُ مزايا الاحتفاظ بالصمت. إننا نميل إلى أن نريد أن يعرف العالم ما عملناه ـ فنحن نريد إرضاء غرورنا بكسب التصفيق لعملنا المضني وبراعتنا، بل إننا قد نريد تعاطفاً مع الساعات التي أمضيناها حتى وصلنا إلى نقطة إبداعنا الفني. تَعَلَّم التحكمَ بهذا النزوع إلى الثرثة لأن تأثيره غالباً ما يكون عكس ما تتوقع. وتذكّر: كلما زاد الغموض المحيط بتصرفاتك، بَدَتْ سلطتك أكثر إثارة للهيبة. إذْ أنك تظهر بأنك الشخص الوحيد القادر على القيام بالعمل الذي تؤديه. كما أن الظهور بمظهر المالك الوحيد لموهبة محصورة فيك يعطي انطباعاً عن قوة هائلة. وأخيراً فإنه نظراً لكونك تحقق منجزاتك بكياسة ويسر، فسيعتقد الناس أنك قادر على تحقيق أكثر لو أنك حاولت بجدِّيَّة ومشقة أكبر. وهذا لا يستدرج الإعجاب فحسب، بل وشيئاً من الرهبة كذلك. فقواك لم تنفتح على مصاريعها بعد ـ ولذلك لا يستطيع أحد أن يسبر غور حدودها.

صورة: حصان السباق. من مكان مرتفع
وقريب نرى التوتر، والجهد المبذول للسيطرة
على الحصان، والأنفاس المبهورة المؤلمة المنفعلة.
ولكن من المسافة التي نجلس فيها للمراقبة، فإن ما
نراه هو الرشاقة وسباحة الحصان في الهواء. فَابْقِ الآخرين
على مسافة منك، ولن يروا سوى اليسر الذي تتحرك به.

الشاهد: إن أي عمل يصحبه [عدم المبالاة]، مهما كان ضئيلاً لا يكشف عن مهارة الشخص الذي يقوم به فحسب، ولكنه كثيراً ما يجعله يبدو أعظم مما هو في الحقيقة. وذلك لأنه يجعل الناظرين إليه يعتقدون أن الرجل الذي يحسن الأداء بكل هذا اليسر لا بد أنه يملك مهارة أعظم مما لديه في الواقع.

(بلتازر كاستيليون، 1478-1529)

الانقلاب

إن السريّة التي تحيط بها أعمالك يجب أن تبدو خفيفة الظل في روحها. فالتحمس لإخفاء عملك قد يخلق انطباعاً كريهاً يكاد يكون جنون ارتياب في الآخرين (بارانويا): وبأنك تأخذ اللعبة على محمل الجدّ بصورة مفرطة. ولقد كان هوديني حريصاً على أن يجعل إخفاء حيله يبدو لعبةً، وجزءاً من الاستعراض. فلا تَعْرِضْ عَمَلَكَ حتى يكتمل وتوضع عليه لمسات الاختتام. ولكن إذا بذلت جهداً مفرطاً في التكتم عليه تحت الأغطية فستكون مثل الرسام بونتورمو، الذي أمضى السنوات الأخيرة من عمره وهو يبخيء لوحاته الجدارية عن عيون عامة الناس، فلم ينجح إلاَّ في دفع نفسه نحو الجنون. احتفظ بحسّ الدعابة دائماً قريباً منك وفي متناول يدك.

وهناك أيضاً مرات يكون فيها كشف التشغيلات الداخلية لمشاريعك شيئاً يستحق الجهد. وكل ذلك يعتمد على ذوق جمهور المتفرجين، وعلى الأوقات التي تشتغل فيها. فقد أدرك ب .ت. بارنوم أن جمهوره يريد أن يشعر بالمشاركة في عروضه وأن فَهْمَ أحابيلِهِ كان يسلّي الناسَ ويمتعهم، ولعل سبب ذلك يعود إلى أن كشف زيف الناس الذين يبقون مصادر قوتهم مخفيةً عن الجماهير كان يثير إعجاب الروح الديمقراطية لأميركا. وكان الجمهور أيضاً يقدر حس الدعابة والصدق والنزاهة لدى صاحب العرض. وأوصل بارنوم هذا إلى الحد الأقصى

بنشر المعلومات عن دجله ومخادعته في سيرته الذاتية الشعبية التي كتبها في أوج حياته العملية.

وما دام الكشف **الجزئي** عن الحيل والأساليب مخطَّطاً بعناية، وليس نتيجة الحاجة المنفلتة للثرثرة غير المسيطر عليها فإنه الغاية في البراعة، إذ إنه يعطي الجمهور وهماً بالتفوق والمشاركة، حتى عندما يظل الكثير مما تفعله مخفياً عنهم.

القانون

31

تحكَّم بالخيارات واجعل الآخرين يلعبون بالأوراق التي توزعها

الحكم

إن أفضل الأحابيل هي تلك التي يبدو أنها تعطي الشخص الآخر خياراً: فيشعر ضحاياك بأنهم هم المسيطرون، بينما هم في الحقيقة دُمًى لك. اعطِ الناس خيارات تأتي في صالحك مهما كان الخيار الذي ينتقونه من بينها. ارغمهم عى الاختيار بين الأهون من الشرّين اللذين يخدمان غرضك على حد سواء. ضعهم فوق قرنَيْ أزمة، بحيث يتلقون نطحةً أينما توجهوا.

مراعاة القانون الأولى

منذ أوائل عهد إيڤان الرابع، الذي عرف فيما بعد باسم إيڤان الرهيب، كان عليه أن يواجه حقيقة بغيضة: فقد كان البلد بحاجة ماسة إلى الإصلاح. ولكن كانت تنقصه السلطة لتنفيذه. وقد جاء أكبر تحديد مقيّد لسلطته من البويار، وهم طبقة الأمراء الروس الذين كانوا يسيطرون على البلد ويرهبون الفلاحين.

وفي سنة 1553، عندما كان إيڤان في الثالثة والعشرين، سقط مريضاً. وبينما كان يرقد في فراشه، مقترباً من الموت، طلب من البويار أن يقسموا يمين الولاء لابنه كقيصر جديد. فتردد بعضهم، بل إن بعضهم رفض. وعندئذٍ، وفي ذلك المكان، رأى إيڤان أن لا سلطة له على البويار. وتعافى من مرضه. ولكنه لم ينس ذلك الدرس أبداً: فالبويار مصممون على تدميره. والحق أن كثيرين منهم هربوا في السنوات التالية إلى أعداء روسيا الرئيسيين، بولندا وليتوانيا، حيث راحوا يتآمرون ليعودوا وليسقطوا القيصر. وحتى الأمير آندري كوربسكي، أقرب الأصدقاء لإيڤان، انقلب عليه فجأةً، فهرب إلى ليتوانيا سنة 1564، وصار أقوى أعداء إيڤان.

وعندما بدأ كوربسكي بتجميع القوات لشن غزو، بدت السلالة الملكية في وضع خطر مترجرج أكثر من أي وقت مضى. فمع تدبير النبلاء المهاجرين غزواً من الغرب، وضغط التَّتَر من الشرق، والبويار

غضب المستشارُ الألمانيُّ بسمارك من الانتقادات المستمرة التي كان يوجهها إليه رودولف فيرْخاوْ (الأخصّائي الألماني في علم الأمراض والسياسي من جماعة الأحرار، 1821-1902)، فأرسل إليه مساعديه ليعرضوا عليه تحدي بسمارك له في مبارزة. فقال فيرخاو: «إن لي أن أختار الأسلحة، ما دمتُ أنا الطرف المعروض عليه التحدّي. وإنني أختار هذه»، ورفع إلى الأعلى قطعتي سجق كبيرتين تبدوان متشابهتين، وتابع: «إن إحداهما مصابة بجراثيم قاتلة. أما الأخرى فهي سليمة تمامًا. دعوا معاليه يقرر ما القطعة التي سيأكلها وأنا سآكل الأخرى». وجاءت رسالة في الحال تقريبًا بأن المستشار قد قرر إلغاء المبارزة.

كتاب الحكايات البنيّ الصغير
تحرير كليفتون فاديمان، 1985

يثيرون الاضطراب من الداخل، فإن حجم روسيا الشاسع جعل الدفاع عنها كابوساً. فأيّاً كان الاتجاه الذي سيوجه فيه إيڤان ضربة، فيسترك نفسه مكشوفاً على الجانب الآخر. فلن يستطيع مواجهة هذه الهيدرا الكثيرة الرؤوس إلاّ إذا امتلك سلطة مطلقة (الهيدرا أفعوان خرافي ذو تسعة رؤوس قتله هرقل، فكان كلما قطع أحد الرؤوس نبت بدلاً منه رأسان: المترجم) ولم تكن له مثل تلك السلطة.

وغرق إيڤان في التفكير حتى صباح الثالث من كانون الأول/ ديسمبر سنة 1564، عندما أفاق مواطنو موسكو على مشهد غريب. كانت هناك مئات من الزحّافات تملأ الساحة التي أمام قصر الكرملين، محملة بكنوز القيصر، وبتموينات للبلاط كله. وتفرجوا غير مصدقين على القيصر ورجال بلاطه يركبون الزحافات ويغادرون المدينة. وبدون أن يوضح لماذا، اختار مقراً له في قرية جنوبيّ موسكو. وطيلة شهر كامل، أمسك نوعٌ من الرعب بخناق المدينة، لأن الموسكوفيين كانوا يخشون من كون إيڤان قد تخلّى عنهم للبويار المتعطشين للدماء. فأغلقت الدكاكين وراحت جموع المشاغبين الغوغائيين تتجمع كل يوم. وأخيراً، في 3 كانون الأول/ ديسمبر سنة 1565، وصلت رسالة من القيصر تشرح أنه لم يعد يطيق خيانات البويار، وأنه قرر التنازل عن عرشه نهائياً وإلى الأبد.

وعندما قُرِئَت الرسالة على الملأ بصوت عال، كان لها أثر مفزع. إذ راح التجار وعامة الناس يلومون البويار على قرار إيڤان. وتدفقوا إلى الشوارع، فأرعبوا النبلاء بثورتهم. وسرعان ما توجهت مجموعة من الوفود تمثل الكنيسة، والأمراء، والشعب، برحلة إلى قرية إيڤان، وتوسلت إلى القيصر، باسم أرض روسيا المقدسة، أن يعود إلى العرش. وأنصت إيڤان، ولكنه رفض تغيير رأيه. غير أنه بعد أيام من سماع توسلاتهم عرض على رعاياه خياراً: فإمّا أن يمنحوه سلطات مطلقة ليحكم كما يهوى، بدون تدخل من البويار، أو أن يجدوا لهم قائداً آخر.

وفي مواجهة خيار بين الحرب الأهلية والقبول بسلطة مستبدّة، «اختار» كل قطاع من الشعب الروسي تقريباً حكم قيصر قوي، ودعوا إيڤان إلى العودة إلى موسكو، وإعادة القانون والنظام. وفي شباط/ فبراير عاد إيڤان إلى موسكو بكثير من الاحتفال. ولم يعد الروس قادرين على الشكوى إذا تصرف بطريقة مستبدّة، فقد أعطوه هذه السلطة بأنفسهم.

التفسير

كان إيڤان الرهيب يواجه مأزقاً رهيباً. فالاستسلام للبويار كان من شأنه أن يؤدي إلى دمار أكيد، ولكن الحرب الأهلية ستجلب نوعاً مختلقاً من الخراب. وحتى لو خرج إيڤان من مثل هذه الحرب منتصراً، فإن البلد سيصاب بالدمار، وتصبح انقساماته أقوى من أي وقت مضى. ففي الماضي كان سلاحه المختار هو القيام بحركة جريئة هجوميّة. أما الآن (سنة 1565) فإن ذلك النوع من الحركة سينقلب ضده ـ فكلما زادت مواجهته لأعدائه سوءاً، كان رد الفعل الذي سيشعله أسوأ.

إن نقطة الضعف الرئيسية في عرض العضلات هو أنه يثير الحنق ويؤدي في آخر الأمر إلى ردّ يجعل سلطتك تتآكل. وكان إيڤان خَلاّقاً على نحو هائل في استخدام السلطة، فرأى بوضوح أن الطريق الوحيد إلى نوع النصر الذي كان يريده هو الانسحاب المزيف. فلن يرغم البلد على تبنّي موقفه، بل سيعطيه «خيارين»: فإمّا تنازله، وما يتبعه من فوضى أكيدة، أو تسلمه سلطة مطلقة. ولدعم حركته، أوضح أنه يفضل التنازل. وقال «ادعوني إلى تنفيذ تهديدي، وارتقبوا ما سيحدث». فلم يَدْعُهُ أحد إلى تنفيذ تهديده. فبالانسحاب شهراً واحداً فقط، أطلع بلده على لمحة من الكابوس الذي سوف يلي تنازله ـ غزو تتري، وحرب أهلية، وخراب. (وقد قيض لهذه الكوارث أن تحدث في آخر الأمر، بعد وفاة إيڤان، في «عصر الاضطراب» سيِّىء الصيت).

فالانسحاب والاختفاء هما من الطرق التقليدية للسيطرة على الخصوم؛ إذْ أنّك تعطي الناس إحساساً بكيفية تساقط الأشياء وتبعثرها

الكذّاب

ذات مرة كان هناك ملكٌ لأرمينيا. وكان ذا طبع غريب وبحاجة إلى شيء جديد يلهيه. فأرسل رسله في جميع أنحاء البلاد ليعلنوا في الناس: «اسمعوا! أيما رجل منكم يستطيع أن يثبت أنه أفظع كذاب في أرمينيا فسوف يتلقى تفاحةً مصنوعةً من الذهب الخالص، من يدي صاحب الجلالة الملك!». فبدأ الناس يتقاطرون بأعداد كبيرة إلى القصر من كل مدينة وقرية صغيرة في البلد، أناس من مختلف الرتب والظروف، أمراء، وتجار، ومزارعون، وقساوسة، أغنياء، وفقراء، طوال، وقصار، سمان، وعجاف. فلم يكن هناك نقص في الكذابين في البلاد. وروى كل منهم قصته للملك. غير أنه كحاكم، كان قد سمع كل أنواع الأكاذيب من الناحية العملية. فلم تقنعه أية واحدة من الأكاذيب التي سمعها بأنها هي الأفضل.

وكان الملك قد بدأ يملّ من هوايته الجديدة، ويفكّر بأن يلغي المباراة كلها دون الإعلان عن أي فائزٍ فيها، عندما ظهر أمامه شخص فقير مهلهل الثياب، يحمل تحت ذراعه إبريقًا من الفخار. فسأله صاحب الجلالة: «ماذا أستطيع

بدونك، وتعرض عليهم «اختياراً»: إمّا أن أبقى بعيداً، وتتحملوا العواقب، أو أعود تحت ظروف أمليها أنا. وبهذه الطريقة من التحكم بخيارات الناس، فإنهم ينتقون الاختيار الذي يعطيك السلطة، لأن البديل كريه للغاية. وبذلك تلوي ذراعهم، ولكن بصورة غير مباشرة. إذ يظهر أن لديهم اختياراً. وكلما شعر الناس بأن لديهم خياراً فإنهم يدخلون إلى مصيدتك بطريقة أسهل بكثير.

مراعاة القانون الثانية

وجدت نينو دي لنكلو، الغانِيَةُ الفرنسية في القرن السابع عشر، أن حياتها فيها مسرات معينة. فقد كان عشاقها متحدرين من الأسر المالكة والأرستقراطية، وكانوا يدفعون لها جيداً، ويمتعونها بحضور بديهتهم وفطنة عقولهم، ويشبعون حاجاتها الحسية الشرهة، ويعاملونها كأنها نِدٌّ لهم تقريباً. ومثل هذه الحياة كانت مفضلةً على الزواج إلى ما لا نهاية. غير أن أمّها ماتت فجأة في سنة 1643، وتركتها وحيدة تماماً في العالم ـ بلا أسرة، ولا دوطة، ولا شيء تستند إليه. فأصابها نوع من الذعر، ودخلت ديراً، فأدارت ظهرها لعشاقها اللامعين المشهورين. وبعد سنة غادرت الدير وانتقلت إلى ليون. وعندما عادت إلى الظهور في باريس في آخر الأمر، في سنة 1648، تقاطر العشاق والخُطّاب إلى بابها بأعداد أكبر من ذي قبل، لأنها كانت أذكى غانيات زمانها وأكثرهن اندفاعاً، وكان حضورُها قد اْفْتُقِدَ كثيراً.

غير أن مُلاحقيها اكتشفوا أنها قد غيّرت طريقتها القديمة في عمل الأشياء، وأقامت نظاماً جديداً للخيارات. فالدوقات، والسادة الإقطاعيون والأمراء الذين كانوا يريدون أن يدفعوا لقاء خدماتها يمكنهم الاستمرار في ذلك. ولكنهم لم يعودوا المسيطرين. إذْ أنها ستنام معهم عندما تريد، حسب نزواتها. فكل ما تشتريه لهم أموالهم لن يتعدى الاحتمال. فإن كان يحلو لها أن تنام معهم مرة في كل شهر فقط، فليكن.

أن أعمل من أجلك؟» فقال الرجل الفقير وهو مذهول ومحتار قليلاً: «يا سيّدي! من المؤكّد أنك تتذكّر؟ أنك مدين لي بإناءٍ من الذهب. وقد جئتُ للحصول عليه». فصرخ الملك: «إنك لكذّابٌ أشِر، وأنا لست مدينًا لك بأية أموال!» فقال الرجل الفقير: «كذّاب أشر؟ أنا؟ إذن أعطني التفاحة الذهبية!» وأدرك الملك أن الرجل كان يحاول أن يخدعه، فبدأ يتملّص: «كلا، كلا! لستَ كاذبًا!» فقال الرجل: «إذن فأعطني إناء الذهب الذي أنت مدين به لي». ورأى الملك المأزق، فأعطاه التفاحة الذهبية.

حكايات وخرافات شعبية أرمنية

يعيد رواياتها: شارلي داونينغ، 1993

أما الذين لم يريدوا أن يكونوا من **الدافعين**، كما أسمتهم نينو، فيمكنهم الانضمام إلى مجموعة كبيرة ومتنامية من الرجال الذي أسمتهم **شهداءها**. وهم الذين يزورون شقتها بشكل أساسي من أجل صداقتها، وذكائها العضوض، وعزفها على العود، وصحبة أنشط العقول المفكرة في ذلك العصر، بما في ذلك موليير، ولاروشفوكو وسان إفرمون. غير أن لأولئك **الشهداء** إمكانية أيضاً: إذ أنها ستختار من بينهم بصورة منتظمة شخصاً **ذا حظوة**، رجلاً يصبح عشيقها دون أن يضطر إلى الدفع، وستترك نفسها له بصورة كاملة طالما ظلت راغبة في ذلك ـ لمدة أسبوع، أو بضعة أشهر، أو أطول من ذلك في حالات نادرة. **فالدافع** لم يكن يستطيع أن يصبح **ذا حظوة**؛ ولكن **الشهيد** لم تكن له ضمانة كي يصبح **ذا حظوة**، بل يمكن أن يظل خائب الأمل طيلة حياة كاملة. فالشاعر شارليفال مثلاً لم يتمتع بالحظوة لدى نينو على الإطلاق، ولكنه لم يتوقف عن زيارتها، فلم يكن يريد الاستغناء عن صحبتها.

وعندما وصلت أخبار هذا النظام إلى المجتمع الفرنسي المهذب، صارت نينو عرضة للعداوة الشديدة. ذلك أن عملية قلبها لمركز الغانية جعلت الملكة الأم ورجال بلاطها ينظرون إلى الأمر على أنه فضيحة. غير أنهم أصيبوا بالهلع عندما لم يثبط ذلك خُطَّابَ وُدِّها من الذكور ـ بل إنه في الحقيقة زاد أعدادهم وقوَّى رغباتهم. وصار مما يشرف المرء أن يكون **دافعاً**، يساعد نينو على المحافظة على طراز معيشتها وصالونها البرّاق، ويرافقها أحياناً إلى المسرح، وينام معها عندما تختار هي. بل لقد كان **الشهداء** أكثر تميزاً، بتمتعهم بصحبتها دون دفع ثمن لها، محتفظين بالأمل في أن يصبحوا من **ذوي الحظوة** لديها ذات يوم، مهما كان ذلك الأمل بعيداً. وقد حفزت هذه الإمكانية كثيرين من النبلاء الشباب حالما انتشر بينهم خبر يقول إنه ليست هناك غانية تبزّ نينو في فن الغرام. وهكذا دخل في شبكتها المتزوجون والعزّاب، والعجائز والشباب، وانتقوا واحداً من الخيارين المعروضَيْن عليهم. فأرضاها ذلك إرضاءً وفيراً.

كانت حياة الغانية تَسْتَتْبِعُ إمكانية سلطة حُرِمَتْ منها المرأة المتزوجة. ولكن كان فيها أخطار واضحة كذلك. فقد كان الرجل الذي يدفع ثمن خدمات الغانية يتملكها من حيث الجوهر، فيقرر متى يستطيع امتلاكها، ومتى يتركها فيما بعد. وعندما كانت الغانية تتقدم في السن، كانت خياراتها تضيق، مع قلة عدد الرجال الذين يختارونها. ولكي تتجنب حياة الفقر، كانت تضطر إلى تجميع ثروتها وهي شابة ما تزال. ولذا كان الطمع الأسطوري للغواني يعكس ضرورة عملية ولكنه كان أيضاً يقلل بريق إغواء الغانية، ما دام الرجال يرون أنّ من المهم لهم أن يكونوا مرغوبين، ولكن كان مما يُنَفِّرهم أن تهتم شريكتهم بأموالهم اهتماماً مفرطاً. ولذلك فإن الغانية كانت تواجه مصيراً صعباً كالحاً كلما تقدم بها العمر.

وكانت نينو دي لنكلو مصابة بالرعب من أي نوع من الاعتماد على غيرها. وكانت في وقت مبكر قد ذاقت نوعاً من المساواة مع عشاقها. فلم تكن لترضى بنظام يترك لها مثل تلك الخيارات البغيضة. وكان من الغرابة بمكان أن النظام الذي ابتكرته كبديل قد بَدَا مُرْضياً لخُطّابِ ودّها بقدر إرضائه لها كذلك. فربما كان **الدافعون** مضطرين إلى الدفع، ولكن كون نينو لا تنام معهم إلاّ عندما تريد كان يبعث فيهم رعشة إثارة لم تتوفر مع كل غانية أخرى: إذْ أنها كانت تستسلم نتيجة لرغبتها هي. كما أن تمكن **الشهداء** من تجنب وصمة الاضطرار إلى الدفع كان يعطيهم شعوراً بالتفوق؛ فبوصفهم أعضاء في أُخُوّة المعجبين بنينو، كان لديهم احتمال أن يصبحوا ذات يوم من ذوي **الحظوة** لديها. وأخيراً فإن نينو لم ترغم خُطّاب ودّها على الاندراج تحت أي فئة: فقد كان بوسعهم «اختيار» أي جانب يفضلونه ـ وهي حرية كانت تترك لهم جانباً من كبرياء الذكور.

فهذه هي السلطة الكامنة في إعطاء الناس خياراً، أو وَهْمَ خيار. إذ أنهم يلعبون بأوراق أنت وزعتَها عليهم. وبينما كانت البدائل التي وضعها

قال ج.ب. مورغان الأكبر ذات مرة لجوهريٍّ ولأحد معارفه: إنه مهتم بشراء دبوس وشاح رأسه من اللؤلؤ. وبعد بضعة أسابيع فقط، وقع الجوهريّ على لؤلؤة رائعة. فركّبها بطريقة لائقة وأرسلها إلى مورغان، ومعها فاتورة بخمسة آلاف دولار. وفي اليوم التالي أعيدت إليه الرزمة. وكانت مذكّرة مورغان المرفقة بها تقول: «إنني أحب الدبوس، ولكنني لا أحب الثمن. فإذا قبلت الصك المرفق بأربعة آلاف دولار، فأرجوك أن تعيد إليّ الصندوق دون كسر ختمه». فرفض الجوهري الغاضب ذلك الصكّ وطرد الرسول باشتمئزاز. وفتح الصندوق ليستعيد منه دبّوسه المرفوض، غير أنه وجد أنه قد أزيل من موضعه، وحل محله صكّ بخمسة آلاف دولار.

كتاب الحكايا الصغير البُنّيّ

تحرير: كليفتون فاديمان، 1985

إيڤان تنطوي على مخاطرة معينة ـ لأن أحد الخيارات كان سيؤدي إلى إفقاده سلطته ـ فإن نينو خلقت وضعاً يعود فيه كل خيارٍ إلى مصلحتها. فمن **الدافعين** كانت تتلقى الأموال التي تحتاج إليها لإدارة صالونها. ومن **الشهداء** كانت تحصل على أقصى ما في السلطة. فاستطاعت أن تحيط نفسها بباقة من المعجبين، بحريم من الذكور تختار منهم عشاقها.

غير أن النظام قد اعتمد على عامل حساس الأهمية، وهو إمكانية تحول **شهيد** إلى ذي **حظوة**، مهما كان الاحتمال بعيداً. إن وَهْمَ كون الثروة، أو المجد، أو إشباع الرغبة الحسية قد تسقط يوماً في أحضان ضحيتك هو إغراءٌ لا يقاوَم فيما تنطوي عليه لائحة خياراتك. إن ذلك الأمل، مهما كان ضئيلاً سيجعل الرجال يقبلون أكثر الأوضاع إثارة للسخرية، لأنه يترك لهم خيار الحلم، وهو خيار هامّ للغاية. إن وَهْمَ الخيار، مشفوعاً بإمكانية الحظ السعيد في المستقبل، سيجلب أشد المغفّلين عناداً إلى شبكتك البراقة.

مفاتيح السلطة

إن كلمات مثل «حرية» و«خيارات» و«انتقاء» توحي بقوة احتمال تتجاوز حقيقة الفوائد التي تستتبعها. وعند الفحص الدقيق للخيارات التي نملكها ـ في السوق، في الانتخابات، في وظائفنا ـ نجد أنها تميل إلى أن تكون لها حدود جديرة بالملاحظة. فهي مسألة اختيار ببساطة بين: أَلِفْ وبَاءْ، بينما تخرج باقي الأبجدية من الصورة. ومع ذلك، فما دام أضأل سرب باهت من الاختيار موجوداً يرفرف على الأفق، فإننا نادراً ما نركِّز على الخيارات المفقودة. بل إننا «نختار» أن نعتقد بأن اللعبة عادلة، وأننا نملك حريتنا. فنحن نفضِّل أن لا نفكِّر أكثر من اللازم في عمق حريتنا في الاختيار.

إن عدم الرغبة في سبر غور خياراتنا الصغيرة ينبع من حقيقة كون الحرية الزائدة عن حدِّها تخلق نوعاً من القلق. فعبارة «خيارات غير

محدودة» لها على الأذن وَقْعٌ واعد غير محدود، ولكن الخيارات غير المحدودة سيكون من شأنها أن تشلّنا، وتحيط بالغيوم قدرتنا على الاختيار. فالنطاق المحدود للخيارات المتاحة لنا يريحنا.

وهذا يزوِّد الأشخاص البارعين والمحتالين الماكرين بفرص هائلة للخداع؛ ذلك أن الناس الذين يختارون بين البدائل يجدون أن من الصعب الاعتقاد بأنهم عرضة للتلاعب، أو أنهم ضحية خديعة. إنهم لا يستطيعون أن يروا أنك تسمح لهم بقدر ضئيل من حرية الإرادة، في مقابل كثير من القوة لفرض إرادتك عليهم. وإذن فإن إيجاد نطاق ضيق من الخيارات ينبغي أن يكون دائماً جزءاً من أحابيلك. وهناك قول مؤثور: «إذا استطعت أن تجعل الطير يدخل إلى القفص من تلقاء نفسه، فسيكون غناؤه فيه أجمل بكثير من المعتاد».

والطرق التالية هي من أكثر الأشكال شيوعاً لـ «التحكم في الخيارات»:

لَوِّن الخيارات: وهذا هو الأسلوب الأكثر تفضيلاً عند هنري كيسنجر. فَبِصِفَتِه وزيراً لخارجية الرئيس ريتشارد نيكسون كان يعتبر نفسه أكثر معلوماتٍ من رئيسه، ويعتقد أنه في معظم المواقف يستطيع أن يتخذ أفضل القرارات وحده. ولكنه إذا حاول أن يبتَّ في السياسة فسوف يزعج رجلاً عُرِفَ عنه أنه واحدٌ من الناس الذين يشعرون بعدم الأمان، بل قد يثير غضبه الشديد. وهكذا كان كيسنجر يقترح ثلاثة خيارات أو أربعة لكل موقف، ويقدِّمها بطريقة يبدو منها أن الخيار المفضَّل لديه هو دائماً أحسن حلّ بالمقارنة مع الخيارات الأخرى. وقد ابتلع نيكسون الطُّعم مرة بعد أخرى. ولم يكن يشكّ أبداً في أنه يتحرَّك إلى حيث يدفع به كيسنجر. وهذا تدبيرٌ ممتاز للاستخدام عندما يكون السيِّد مِمَّن يشعرون بعدم الأمان.

أَرْغِم المقاوِم: كان الدكتور ملتون هـ. إيريكسون أحد رواد المعالجة بالتنويم المغناطيسي في خمسينات القرن العشرين، وكانت

إحدى المشاكل الرئيسية التي تواجهه هي انتكاسة المريض. فكان مرضاه ربما بدا عليهم أنهم آخذون في التحسن بسرعة. غير أن استجابتهم الظاهرية للعلاج كانت تخفي مقاومة عميقة: فسرعان ما كانوا يرتكسون عائدين إلى عاداتهم القديمة، فيلقون باللوم على الطبيب ويتوقفون عن مراجعته. ولتجنّب ذلك، شرع إيريكسون **يأمر** بعض المرضى بالانتكاس، وبِجَعْلِ أنفسهم يشعرون بأن حالتهم من السوء كما كانت عندما راجعوه أول مرة ـ وبأن يعودوا إلى المربَّع الأول. وفي مواجهة هذا الخيار، كان المرضى «يختارون» في العادة أن يتجنَّبوا الارتكاس. وهذا بالطبع ما كان يريده إيريكسون في الحقيقة.

وهذا أسلوب جيِّد للاستخدام مع الأطفال، وغيرهم من الأشخاص المتصفين بالعناد، مِمَّن يتمتعون بعمل عكس ما تطلبه منهم: فادفعهم إلى «اختيار» ما تريدهم أن يفعلوه عن طريق الظهور بمظهر المدافع عن العكس.

غيِّر ميدان اللعب: في ستينات القرن التاسع عشر، شرع جون د. روكفيللر بإيجاد احتكار للنفط. فلو حاول ذلك، فإن شركات النفط الصغرى بكاملها كانت قد فهمت ما كان يعمل وقاومته. وبدلاً من ذلك بدأ سرّاً في شراء شركات سكك الحديد التي كانت تنقل النفط. وعندما راح بعد ذلك يحاول السيطرة على شركة معيَّنة للنفط ويلقى مقاومة، كان يذكِّر أصحاب تلك الشركة باعتمادهم على سكك الحديد. فكان رفض شحن نفطهم، أو رفع أجور الشحن ببساطة، قد يدمِّر تجارتهم. وهكذا غيَّر روكفيللر ميدان اللعب، بحيث كانت الخيارات الوحيدة التي تبقى لصغار منتجي النفط هي الخيارات التي يعطيها لهم.

وبهذا التكتيك يعرف خصومك أن هناك ضغطاً يلوي ذراعهم. ولكن هذا لا يهمّ. فالخطة مؤثرة ضد مَنْ يقاومون مهما كان الثمن.

الخيارات المتقلصة: كان تاجر اللوحات الفنية في أواخر القرن التاسع عشر، آمبرويز فولارد، من الذين أتقنوا هذا الأسلوب. فكان

الزبائن يأتون إلى دكانه لرؤية بعض لوحات سيزان، فيعرض عليهم ثلاث لوحات، ويهمل ذكر الأسعار، ويتظاهر بأنه قد أخذته سِنَةٌ من النوم. فيضطر الزوار إلى المغادرة دون أن يقرِّروا شيئاً، ويعودون في العادة في اليوم التالي لرؤية اللوحات مرة أخرى. ولكن فولارد كان في تلك المرة يخرج لهم لوحاتٍ أقل إثارة للاهتمام، متظاهراً بأنه ظنَّها هي اللوحات نفسها. فينظر الزبائن إلى المعروضات الجديدة وهم مذهولون. ويغادرون للتفكير فيها، ثم يعودون مرة أخرى. فيحدث الشيء نفسه تكراراً: إذ يعرض عليهم فولارد لوحاتٍ أقل قيمة أيضاً. وأخيراً يدرك المشترون أن من الأفضل لهم أن يلتقطوا ما يعرضه عليهم، لأنهم قد يضطرون في الغد إلى الموافقة على شيء أَرْدَأ، وربما بأسعار أغلى.

ومن التنويعات على هذا الأسلوب رفع السعر في كل مرة يتردَّد فيها الزبون ويمضي يوم آخر. فهذه خدعة تفاوض ممتازة للاستخدام ضد المصابين بتردّد مزمن يمنعهم من الحسم. إذ أنهم سيقْبَلون عندئذٍ فكرةَ أنهم سيحصلون اليوم على صفقة أفضل مما لو انتظروا إلى الغد.

الرجل الضعيف على حافة الهاوية: إن الضعاف هم أفضل مَنْ يمكن التلاعب بهم للتحكم بخياراتهم. كان الكردينال دي ريتْز، مثير الشعب الكبير في القرن السابع عشر، يعمل كمساعد غير رسمي لدوق أورليانز، الذي اشتهر بتردده الشديد. فقد كان إقناع الدوق باتخاذ أي إجراء صراعاً متصلاً ـ فقد كان يتردَّد، ويزن الخيارات، وينتظر حتى اللحظة الأخيرة، ويصيب كلَّ من حوله بقرحة من شدة القلق. ولكن ريتز اكتشف طريقة للتعامل معه: فكان يصف كل أنواع الأخطار، ويبالغ فيها إلى أقصى حدٍّ ممكن، حتى يرى الدوق هوّة فاغرة فاها لابتلاعه في كل اتجاه. سوى اتجاه واحد: هو الذي كان ريتز يدفعه إليه.

وتشبه هذه الخطةُ تكتيكَ «تلوين الخيارات». ولكن يتعيَّن عليك أن تكون أكثر عدوانيةً مع الضعاف، فاستغلّ عواطفهم، واستعمل خوفهم

ورعبهم لتحريضهم على العمل، لأنك لو حاولت الإقناع العقلي لوجدوا دائماً طريقة للتسويف.

الإخوة في الجريمة: وهذا أسلوب تقليدي يتبعه فنانو التحايل. ويتلخص في اجتذاب ضحاياك إلى خطة إجرامية، فتخلق بينك وبينهم رابطة من الدماء والذنوب، فيشاركون في الخديعة، ويرتكبون جريمة (أو يظنون أنهم ارتكبوا ـ انظر قصّة سام جيزيل في القانون الثالث من هذا الكتاب)، وعندئذ يسهل التلاعب بهم. فقد قام سيرج ستافيسكي، فنان التحايل الفرنسي في عشرينات القرن العشرين، بتوريط الحكومة في أحابيله وحيله بصورة متشابكة، إلى درجة أن الدولة لم تجرؤ على ملاحقته قضائياً، و«اختارت» أن تتركه وشأنه. فكثيراً ما يكون من الحكمة أن تورط في أحابيلك الشخص الذي يحتمل أن يسبِّب لك أكبر كميةٍ من الإذى بالذات إذا فشلتَ. ويمكن أن تكون عملية التوريط خفية وذكية ـ فحتى التلميح بتورطهم يضيِّق مجال خياراتهم ويشتري لك سكوتهم.

قرون المأزق: وهذه فكرة مثّلتها وأوضحتها عملية الزحف اللعينة التي قام بها الجنرال وليام شيرمان عبر ولاية جورجيا اثناء الحرب الاهلية الأميركية. فعلى الرغم من أن الكونفدراليين الجنوبيين كانوا يعرفون الاتجاه الذي يسير فيه شيرمان، فإنهم لم يعرفوا قطّ إن كان سيهاجم من اليسار أم من اليمين، لأنه قسم جيشه إلى جناحين ـ بحيث إذا تراجع المتمردون عن جناح، فسوف يجدون أنفسهم في مواجهة الجناح الآخر. وهذا أسلوب تقليدي للمحامين في أثناء المحاكمات. فالمحامي يستدرج الشاهد للبتّ بين تفسيرين محتملين لواقعة مّا، بحيث يؤدي التفسيران كلاهما إلى فتح ثغرة في روايته. والشاهد مضطر إلى الإجابة على أسئلة المحامي، ولكن مهما كان ما يقوله فسيؤذي به نفسه. ومفتاح هذه الحركة هو توجيه الضربة بسرعة: إحْرِم الضحيّة من الوقت للتفكير في مخرج. وبينما هو يتلوَّى بين قرني المأزق، فإنه يحفر قبره بنفسه.

إفهم: في صراعك مع منافسيك، كثيراً ما يكون من الضروري أن تؤذيهم. وإذا كنتَ أداةَ معاقبتهم فتوقَّع منهم هجوماً معاكساً ـ توقع الانتقام. غير أنهم إذا ظهروا **لأنفسهم** أنهم كانوا هم أدوات مصيبتهم، فسوف يستسلمون بهدوء. فعندما غادر إيڤان موسكو متجهاً إلى قريته الريفية، وافق المواطنون الذين طلبوا منه العودة، على طلبه الحصول على سلطة مطلقة. وعلى مدى السنين، خفَّت كراهيتهم له على الإرهاب الذي أطلقه في البلد، لأنهم، بعد كل شيء، كانوا هم أنفسهم الذين منحوه سلطته. ولذا فإن من الجيِّد دائماً أن تسمح لضحاياك باختيار السمّ، وأن تخفي بأقصى قدرٍ ممكن تورطك في تزويدهم به.

صورة: قرنا الثور.
يدفعك الثور إلى الزاوية
بقرنيه معاً. لا بقرنٍ
واحد، يمكنك الهرب
منه؛ ولكن بزوج من
القرون يصطادانك في
قبضتهما، فإذا هربت
يميناً أو شمالاً ففي
الحالين معاً تتحرَّك إلى
رأسيهما الثاقبين فتتلقى
النطحة منهما.

الشاهد: ذلك أن الجروح وكل شرٍّ آخر يوقعه الناس بأنفسهم عفويّاً، وباختيارهم الذاتي هي على المدى الطويل أقل إيلاماً من تلك التي يوقعها بهم الآخرون *(نيقولو ماكيافيلي، 1496-1527)*.

الانقلاب

إن التحكم في الخيارات له غرض رئيسي واحد: هو أن تتنكَّر بصفتك أداة للسلطة والعقاب، وإذن فإن هذا التكتيك يحقق أفضل نجاح للذين سلطتهم هشّة، والذين لا يستطيعون العمل بشكل مكشوف أكثر من اللازم دون أن يثيروا شبهةً، وحنقاً وغضباً. غير أنه حتى كقاعدة عامة، نادراً ما يكون من الحكمة أن يراك الناس تمارس السلطة مباشرة، وبقوة، مهما بلغ مقدار قوَّتك أو شعورك بالأمان. إذْ أن إعطاء الناس وَهْمَ الاختيار يظل في العادة أكثر كياسةً وأفعل تأثيراً.

ومن جهة أخرى، فإنك بتحديد خيارات الناس تحدِّد خياراتك أحياناً. فهناك مواقف يكون فيها من مصلحتك أن تسمح لمنافسيك بدرجة كبيرة من الحرية: فبينما تراقبهم وهم يعملون، فإنك تعطي نفسك فرصاً غنية للتجسس عليهم، وتجميع المعلومات، والتخطيط لأحابيلك. وكان مصرفيّ القرن التاسع عشر، جيمس روتشيلد، يحبّ هذه الطريقة: ذلك أنه كان يشعر أنه إذا حاول التحكم بحركات خصومه، فسوف يفقد فرصة رصد خطتهم الاستراتيجية والتخطيط لعمل أو إجراء أكثر فاعلية. فكان كلما سمح لهم بحرية أكبر على المدى القصير، زادت قوة عمله ضدهم على المدى الطويل.

القانون

32

داعب خيالات الناس

الحكم

كثيراً ما يتجنَّب الناس الحقيقة لأنها قبيحة وبغيضة. فلا تتوجَّه إلى الحقيقة والواقع ما لم تكن مستعداً للغضب الذي ينجم عن الصحوة من الوهم أو السحر. فالحياة قاسية وضاغطة بكربها إلى درجة أن الناس القادرين على صنع الأحلام أو استدعاء الخيالات والأوهام يشبهون الواحات في الصحراء: فالجميع يتقاطرون إليهم. إن هناك سلطة كبرى في فتح مساراتٍ لخيالات الجماهير.

مراعاة القانون

ظلَّت البندقية، المدينة ـ الدولة، غنيةً زمناً طويلاً إلى درجة أن مواطنيها راحوا يشعرون أن القَدَرَ نفسه يقف إلى جانب جمهوريتهم الصغيرة. ففي العصور الوسطى وحتى أوج عصر النهضة في آخر القرن الخامس عشر، جعلها احتكارها العملي للتجارة مع الشرق أغنى مدينة في أوروبا. وتحت حكومة جمهورية خيِّرة، كان البنادقة يتمتعون بحريات لم تعرفها قطّ إلاَّ مدنٌ إيطالية قليلة جداً. ومع ذلك فقد تغيَّرت حظوظهم فجأة في القرن السادس عشر، وقد أدَّى فتح الدنيا الجديدة إلى تحوُّل السلطة إلى الجانب الأطلسي من أوروبا ـ أي إلى الإسبان والبرتغاليين، وبعد ذلك إلى الهولنديين والإنكليز. فلم تعد البندقية قادرة على المنافسة اقتصادياً، وراحت إمبراطوريتها تتضاءل بالتدريج. فكانت الضربة النهائية هي الخسارة المدمِّرة لإحدى ممتلكاتها النفيسة في البحر الأبيض المتوسط، وهي جزيرة قبرص، التي انتزعها الأتراك من البنادقة في سنة 1570م.

وعندئذ أفلست الأسر النبيلة في البندقية، وبدأت المصارف تطوي نشاطها. وخيَّم على المواطنين نوعٌ من التشاؤم والاكتئاب. فقد عرفوا ماضياً برَّاقاً ـ عاشوا خلاله أو سمعوا عنه قصصاً ممَّن هم أكبر منهم سناً. وكان قرب تلك السنوات المجيدة منهم شيئاً مذلاً. فكان البنادقة نصف مصدّقين أن إلهة الحظ كانت تمارس عليهم نكتة فحسب، وأن

الأيام القديمة ستعود عما قريب. ولكن ماذا كان بوسعهم أن يفعلوا ريثما يحين ذلك الوقت؟

وفي سنة 1589، بدأت الإشاعات تحوم حول البندقية عن وصول رجل غامض رجل إلْ براغادينو (المتبجِّح)، وهو أستاذ في الكيمياء، ورجل كسب ثروة لا تصدَّق، من قدرته ـ كما قيل ـ على مضاعفة كميات الذهب عن طريق استعمال مادة سرِّيَّة. فانتشرت الإشاعة بسرعة، لأنه حدث قبل ذلك ببضعة أعوام أن أحد نبلاء البندقية كان مارّاً عبر بولندا فسمع رجلاً متعلِّماً يتنبأ بأن البندقية ستستعيد مجدها وسلطتها الماضيين إذا استطاعت العثور على رجل يفهم الفنّ الكيميائي لصناعة الذهب. وهكذا فعندما وصل إلى البندقية خبر الذهب الذي يملكه هذا البراغادينو ـ فقد كان يرنّ المسكوكات الذهبية في يديه باستمرار، وقد ملأت الأشياء الذهبية قصره ـ بدأ بعض الناس يحلمون: بواسطته قد تزدهر مدينتهم كرَّةً أخرى.

وبناء على ذلك توجه أفراد أهمّ الأسر النبيلة في البندقية معاً إلى بريشيا، حيث كان براغادينو يعيش. فطافوا بقصره، وراحوا ينظرون برهبة بينما كان يعرض عليهم قدراته في صناعة الذهب، فيأخذ مقداراً ضئيلاً من معادن يبدو أنها تافهة ويحوِّلها إلى عدة أونصات من مسحوق الذهب. وتهيَّأ مجلس شيوخ البندقية لمناقشة فكرة توجيه دعوة رسمية إلى براغادينو للإقامة في البندقية على حساب المدينة عندما وصلهم فجأة خبرٌ يقول إنهم كانوا يتنافسون على خدماته مع دوق مانطوا. وسمعوا عن الحفلة الرائعة التي أقامها براغادينو في قصره للدوق، والتي ظهرت فيها ملابسُ بأزرار ذهبية، وساعاتٌ من الذهب، وأطباقٌ من الذهب... وهلمَّ جرا. وبسبب القلق من خسارة براغادينو لصالح مانْطُوَا، صوَّت مجلس الشيوخ بما يقرب من الإجماع على دعوته إلى البندقية، واعدين إيّاه بجبل الأموال الذي سيحتاج إليه كي يستمر في أسلوب معيشته الباذخ ـ ولكن فقط إذا جاءهم على الفور.

وفي أواخر تلك السنة (1589) وصل براغادينو الغامض إلى البندقية. وكان منظره يوحي بالرهبة والهيبة، بعينيه الداكنتين الثاقبتين تحت حاجبين كثيفين، وكلبي الحراسة الضخمين اللذين يرافقانه في كل مكان. فاتخذ مقره في قصر فخم على جزيرة غويديكا، وأخذت الجمهورية تموِّل ولائمه، وملابسه الغالية الثمن، وجميع نزواته الأخرى. وانتشر نوعٌ من حمَّى الكيمياء خلال البندقية. ففي زوايا الشوارع، شرع البائعون الجوَّالون يبيعون الفحم، وأدوات التقطير، والأكوار، وكتب تشرح كيفية الاشتغال في الكيمياء. وبدأ الجميع في ممارسة الكيمياء ـ الجميع ما عدا براغادينو.

ولم يَبْدُ على الكيميائي أنه مستعجل للبدء في صنع الذهب لإنقاذ البندقية من الخراب. فكان من الغرابة بمكان أن ذلك لم ينجم عنه سوى زيادة شعبيته وأتباعه. فقد ازدحم الناس من جميع أنحاء أوروبا، وحتى من آسيا، لملاقاة هذا الرجل اللافت للأنظار. ومرَّت الشهور تترى، وتوالت الهدايا إلى براغادينو من جميع الجوانب. ومع ذلك لم يعطِ أي علامة على إنجاز المعجزة التي توقع البنادقة بثقة أنه سينتجها. غير أن المواطنين بدأوا في آخر الأمر يفقدون صبرهم، ويتساءلون إن كانوا سينتظرون إلى الأبد. وقد حذرهم الشيوخ أولاً أن لا يستعجلوه ـ إذ أنه شيطان متقلِّب المزاج يحتاج إلى مداهنة. وأخيراً بدأ النبلاء يتعجبون أيضاً ويتساءلون. ووقع مجلس الشيوخ تحت الضغط ليعرض على الناس مردوداً لاستثمار المدينة الآخذ في التضخم كالبالون.

ولم يكن لدى براغادينو سوى الاحتقار للشكاكين، ولكنه ردَّ عليهم، فقال إنه قد أودع في دار سكّ النقود في المدينة المادةَ الغامضة التي تُضاعفُ الذهبَ، وأن بإمكانه استعمال المادة كلها دفعة واحدة لمضاعفة الذهب مرة واحدة. ولكن كلما كان استعمال المادة في العملية أبطأ، زاد مردودها. فإذا تركت المادة وشأنها في علبة مختومة سبعة أعوام، فإن المادة ستضاعف الذهب الذي في دار السكّ ثلاثين مرة.

فوافق معظم أعضاء مجلس الشيوخ على الانتظار لحصاد منجم الذهب الذي وعدهم به براغادينو. غير أن آخرين غضبوا: سبع سنوات عجاف أخرى، يعيش فيها هذا الرجل عيشة ملوكية على المعلف العام! ووجدت هذه العواطف صدى ردَّده كثيرون من عامة المواطنين. وأخيراً طلب أعداء الكيميائي أن يُظْهِر برهاناً على مهاراته: كمية كبيرة من الذهب، وبسرعة.

واستمر براغادينو على أنفته المتعجرفة، مُظْهِراً أنه مكرس لفنه، وردَّ بأن البندقية قد خانته بفقدانها للصبر، ولذا فإنها ستخسر خدماته. ثم غادر المدينة، فذهب أولاً، إلى مدينة بادوا القريبة، ثم إلى ميونيخ في سنة 1590، بناء على دعوة من دوق باڤارية، الذي كان ـ مثل مدينة البندقية بكاملها ـ قد عرف الثراء العظيم، ثم وقع ضحية الإفلاس نتيجة لتهتكه وإسرافه، فراح يأمل في استعادة ثروته من خلال خدمات الكيميائي الشهير. وهكذا استأنف براغادينو التمتع بالترتيب المريح الذي كان قد عرفه في البندقية، فتكرَّر النمط نفسه.

التفسير

كان الشاب القبرصي مَامُوغْنَا قد عاش عدة أعوام في البندقية قبل أن يعيد تجسيد نفسه باسم الكيميائي براغادينو. وشهد كيف حلَّ الظلام الكئيب على المدينة، وكيف كان الجميع يأملون في الخلاص على يد مصدر غير محدَّد. وبينما كان الدجالون الآخرون يتقنون الحيل اليومية القائمة على خفّة اليد، فإن ماموغنا قد أتقن فهم الطبيعة الإنسانية. فكانت البندقية هي هدفه منذ البداية، وهكذا سافر إلى الخارج، وكسب أموالاً عن طريق شَعْوَذاتِه الكيميائية، ثم عاد إلى إيطاليا، حيث أقام دكانه في بريشيا. وهناك خلق لنفسه سمعة كان يعرف أنها سوف تنتشر لتصل إلى البندقية. بل إن هالة سلطته ستبدو من بعيد أكثر إثارة للإعجاب في الواقع.

وفي البداية، لم يستخدم ماموغنا العروض الفجَّة المبتذلة لإقناع الناس بمهاراته الكيميائية. فقد كان قصره الفخم، وملابسه الفاخرة، ورنين الذهب في يديه... كان ذلك كله حجة تتفوَّق على أي شيء عقلانيّ.. وأسس ذلك له الدائرة التي استمرَّت في الحركة. وأكدت ثروتُهُ الواضحةُ سُمْعَتَهُ ككيميائي، بحيث أعطاه الرعاة (مثل دوق مانطوا) أموالاً، مما أتاح له أن يعيش في بحبوحة، وأدَّى ذلك بدوره إلى تعزيز سمعته ككيميائي... وهكذا. وعندما ترسَّخت هذه السمعة، وراح الدوقات والشيوخ يتقاتلون عليه، لم يلجأ إلى الضرورة التافهة لاستعراض مهاراته المزعومة إلاَّ مرَّة واحدة. غير أنه عندما حلَّ ذلك الوقت كان من السهل أن ينخدع به الناس. فقد كانوا يريدون أن يؤمنوا. فالشيوخ البنادقة الذين تفرجوا عليه وهو يضاعف الذهب كانوا بحاجة ماسة إلى الإيمان بحيث عجزوا عن ملاحظة الأنبوب الزجاجي الممتد عبر كمّه، والذي سرَّب منه مسحوقَ الذهب مع الحفنة الضئيلة من المعادن. فكان بألمعيته وتقلبه الكيميائي الذي تحلم به خيالاتهم ـ وما أن خلق لنفسه هالة كهذه، حتى عجز الناس عن ملاحظة أحابيله البسيطة.

هذه هي سلطة الخيالات التي ترسَّخ جذورها فينا، وخاصة في أوقات الندرة والهبوط. فنادراً ما يعتقد الناس أن مشاكلهم تنبع من سيئاتهم وغبائهم بالذات. فاللوم يتحمَّله شخصٌ مّا أو شيءٌ مّا هناك في الخارج، الآخر، العالم، الآلهة ـ وهكذا يأتي الخلاص من الخارج كذلك. ولو وصل براغادينو إلى البندقية، مسلَّحاً بتحليل مفصَّل للأسباب الكامنة وراء انحطاط المدينة الاقتصادي، والخطوات العنيدة الحثيثة التي قد يتطلبها تغيير سير الأمور، لتعرض للاحتقار. ذلك أن الحقيقة كانت مفرطة السوء، والحلّ كان مؤلماً للغاية. وهو في غالبيته نوع العمل الشاق المضني الذي كرَّسه أجداد البنادقة ليخلقوا منه إمبراطوريتهم. أما الخيال من جهة أخرى ـ وفي هذه الحالة، كان هو

وهم الكيمياء الحالم. فكان من السهل فهمه، كما أنه سائغ أكثر، وبلا حدود.

للحصول على السلطة، يتعيَّن عليك أن تكون مصدر مَسَرَّة لمن حولك، والمسرَّة تأتي من استغلال حالات الناس. فإياك أن تَعِدَهُمْ بتحسّنٍ تدريجي عن طريق العمل الشاق، بل عِدْهم بالقمر، وبالتحوُّل المفاجىء والعظيم، وبوعاء الذهب.

لا يحتاج أي إنسان إلى اليأس من كسب أتباع لأغرب الفرضيَّات، إن كان لديه ما يكفي من الفن لعرضها في ألوان ملائمة.

(ديفيد هيوم، 1711-1776)

مفاتيح السلطة

لا يستطيع الخيال أن يعمل وحده قطّ. بل هو يتطلَّب الستارة الخلفيّة لما هو رتيب وأرضي دنيوي. إن ضغط الحقيقة الخانق هو الذي يتيح للخيال أن يرسخ جذوره ويزهر. ولقد كانت الحقيقة في البندقية في القرن السادس عشر هي الانحطاط وفقدان النفوذ. وكان الخيال المقابل يصف استعادةً مفاجئةً لأمجاد الماضي عن طريق معجزة الكيمياء. وبينما لم تزد الحقيقةُ إلاَّ سوءاً، عاش البنادقة في عالمٍ سعيد من الأحلام استعادت فيه مدينتهم ثراءَها وسلطانها الخرافيين بين عشية وضحاها بتحويل التراب إلى ذهب.

إن الشخص الذي يستطيع أن ينسج خيالاً من حقيقة ثقيلة الوطأة يتوصل إلى قوة لا مثيل لها. ولذا فعندما تبحث عن الوهم الذي سيسيطر على الجماهير، أَبْقِ عينك مركّزةً على الحقائق العادية المبتذلة التي تضغط علينا جميعاً بشكل ثقيل. ولا تُلْهِيَنَّكَ تصورات الناس البراقة عن أنفسهم وعن حياتهم؛ فابحث واحفر عميقاً عمّا هم سجناء في داخله. وعند عثورك عليه، يصبح لديك المفتاح السحري الذي يضع في يديك سلطة عظمى.

ورغم أن الأزمنة تتغير، وكذلك الناس، فلنتفحّص بضع حقائق خانقة تدوم، وفرص اكتساب السلطة التي تقدّمها:

الحقيقة: التغيير بطيء وتدريجي. وهو يتطلب عملاً شاقاً جادّاً، وقليلاً من الحظّ، وكمية لا بأس بها من التضحية بالذات، وكثيراً من الصبر.

الخيال: إن تحولاً مفاجئاً سيأتي بتغيير كلّي لحظوظ المرء، متجاوزاً العمل، والحظ، والتضحية بالذات، والزمن في ضربةٍ خياليةٍ واحدة.

وهذا بالطبع هو الوهم المثالي الممتاز للمشعوذين الذين يتسكعون بيننا حتى هذا اليوم. وقد كان هو مفتاح نجاح براغادينو. قَدِّمْ وعداً بتغيير عظيم وكلّي، من الفقر إلى الغنى، ومن المرض إلى الصحة، ومن التعاسة إلى نشوة السعادة ـ وسيكون لك أتباع.

كيف أصبح ليونارد ثورنيسر، الدجال الألماني الكبير في القرن السادس عشر، طبيباً لبلاط أمير براندنبرغ دون أن يدرس الطبّ على الإطلاق؟ لقد كان ثورنيسر يقدم أكاسِرَ حلوةَ المذاق ووعوداً بالشفاء الفوري، بدلاً من عمليات البتر، والعَلَق، والمطهرات الخبيثة الطعم (الأدوية الشائعة في ذلك الزمن). فكان رجال الحاشية من الطبقة الراقية على وجه الخصوص يطلبون محلوله من «الذهب القابل للشرب» الذي كان يكلّف ثروة. فإذا أصابك مرض لا تفسير له، فإن ثورنيسر يستطلع لك الأبراج ليصف طلسماً. فمن يستطيع أن يقاوم مثل هذا الوهم ـ الصحة والسعادة بدون تضحية ولا ألم!

الحقيقة: إن المملكة الاجتماعية فيها قوانين وحدود قاسية جامدة. ونحن نفهم هذه الحدود، ونعرف أننا مضطرون للتحرك ضمن الدوائر المعروفة لدينا نفسها، يوماً إثْرَ يوم.

الخيال: إننا قادرون على دخول عالم جديد كلياً، فيه قوانين مختلفة ووعد بالمغامرة.

في أوائل القرن الثامن عشر، كانت مدينة لندن كلها تئزّ بالحديث عن شخص غامض غريب، شاب يدعى جورج سالمنصّر، كان قد وصل ممّا يعتبره معظم الإنكليز، أرض الخيال: من جزيرة فرموزا (تايوان الآن)، على مقربة من ساحل الصين. وكانت جامعة أوكسفورد قد استأجرت سالمنصّر لتدريس لغة تلك الجزيرة؛ وبعد بضعة أعوام ترجم الإنجيل إلى اللغة الفرموزية، ثم ألف كتاباً عن تاريخ فرموزا وجغرافيتها ـ صار على الفور من أفضل الكتب مبيعاً .. وأخذ أفراد العائلة المالكة يدعون هذا الشاب إلى الطعام والشراب. وفي كل مكان يذهب إليه، كان يتحف مضيفيه بقصص عجيبة عن وطنه وعاداته الغريبة.

غير أنه بعد موت سالمنصّر هذا كشف وصيتُه أنه لم يكن في الحقيقة سوى رجل فرنسي واسع الخيال. وكان كل شيء قاله عن فرموزا ـ أبجديتها، ولغتها، وأدبها، وحضارتها كلها ـ من اختراعه. لقد اعتمد على جهل عامة الإنكليز بذلك المكان لكي يلفق قصة بارعة التركيب لَبَّت رغبتهم فيما هو عجيب وغريب. وقد أعطته السيطرة الصارمة على أحلام الناس الخطرة في الحضارة البريطانية فرصةً كاملة لاستغلال خيالهم.

كما أن الخيال الغرائبيّ يستطيع بالطبع أن يلامس ما هو جنسيّ. غير أنه يجب أن لا يقترب منه بشكل مفرط، لأن الجسدي يعيق سلطة الخيال؛ فالجسدي يمكن رؤيته، والإمساك به، ثم الملل منه ـ فهذا هو مصير معظم الغواني. ذلك أن المفاتن الجسدية للعشيقة إنما تشحذ شهوة السيد لمسرات أخرى ومختلفة، لجمال جديد يعبده. فلكي يأتي الخيال بالسلطة ينبغي أن يظل غير متحقق إلى حدٍ مّا، وأن يكون غير حقيقيّ بالمعنى الحرفي للكلمة. وعلى سبيل المثال، فإن الراقصة ماتاهاري، التي صعدت إلى مكانة عامة بارزة في باريس قبل الحرب العالمية الأولى، كان منظرها عادياً تماماً. فقد كانت سلطتها نابعة من الخيال الذي خلقته عن كونها غريبة ومجلوبة، غير قابلة لأن يعرفها أو يحل

لغزها أحد. فالأمور المحرمة التي استغلّتها كانت هي انتهاك القوانين الاجتماعية أكثر من أن تكون جنساً.

ومن الأشكال الأخرى للخيال الغرائبيّ الأمل ـ ببساطة ـ في التخلص من السأم. ففنانو التدجيل والخداع يحبون أن يستغلّوا ثقل وطأة عالم العمل، وانعدام المغامرة فيه. ويمكن أن تنطوي أحابيلهم ـ مثلاً ـ على استعادة كنز إسباني مفقود مع مشاركة ممكنة من آنسةٍ مكسيكيّة مغرية، وعلاقة مع رئيس بلد أميركي لاتينيّ ـ وأي شيء يقدم خلاصاً من الرتابة المملّة.

الحقيقة: المجتمع مجزّأ ومليء بالصراع.

الخيال: يستطيع الناس أن يتجمعوا معاً في وحدة صوفية للأرواح.

في عشرينات القرن العشرين، كوّن المحتال أوسكار هارتزل ثروةً سريعة من عملية نصب تاريخية قديمة معروفة باسم السير فرانسيس دريك (الأميرال الإنكليزي ذي الاسم الأسطوري الذي عاش في القرن السادس عشر 1543 ـ 1596، ونهب المستعمرات الإسبانية في الدنيا الجديدة، وشارك في دحر الأرمادا الإسبانية التي كانت تنوي غزو إنكلترا سنة 1588: المترجم) ـ وهي عملية تتكون أساساً من تقديم وعدٍ لأيّ مغفل يتصادف أن يحمل اسم «دريك» بإعطائه حصة كبيرة من «كنز دريك» المفقود منذ زمن طويل، والموجود تحت يد هارتزل. وقد وقع الألوف عبر الغرب الأوسط الأميركي ضحايا هذه الخديعة، التي حوّلها هارتزل ببراعة إلى حملة عنيفة ضد الحكومة، وكل شخص آخر يحاول إبعاد ثروة دريك عن أيدي ورثته الشرعيين. وقد نشأ اتحاد صوفي لآل دريك المقهورين، راح يعقد تجمهرات واجتماعات عاطفية. قدم وعداً بتشكيل اتحاد من هذا القبيل فتحصل على كثير من السلطة، ولكنها سلطة خطرة يمكن أن تنقلب ضدك بسهولة. فهذا خيال يستغلّه المهرجون الدهمائيون.

الحقيقة: الموت: لا يمكن إعادة الموتى، والماضي لا يمكن تغييره.

الخيال: قلبٌ مفاجئٌ لهذه الحقيقة التي لا تطاق.

لهذه الخديعة تنويعات كثيرة، ولكنها تتطلب براعة عظيمة وذكاءاً حاذقاً ماكراً.

لقد اعترف الناس منذ زمن طويل بجمال فنّ الرسام الهولندي جان فيرمير (1632 ـ 1675) وأهميته. ولكن لوحاته قليلة العدد، ونادرة للغاية. غير أنها بدأت تظهر في سوق الفن في ثلاثينات القرن العشرين. واستدعي الخبراء للتحقق منها، فأعلنوا أنها حقيقية. وكان امتلاك هذه اللوحات الجديدة لفيرمير جديراً بتتويج الحياة العملية لأي جامعٍ للتحف الفنية. إذ كانت تشبه بعث العزيز إلى الحياة. وهكذا تم بعثُ فيرمير بطريقة غريبة.

ولم يظهر إلاَّ فيما بعد أن لوحات فيرمير الجديدة هذه إنما كانت من عمل مزوّر هولندي في منتصف العمر يدعى هان فان ميغِرين وقد اختار فيرمير لخديعته لأنه كان يفهم الخيال. إذْ أن الرسوم ستبدو حقيقية لأن عامة الناس، وكذلك الخبراء، كانوا يريدون، بالضبط وبصورة يائسة، أن يعتقدوا بأنها حقيقية.

تَذَكَّرْ: إن مفتاح الخيال هو بعد المسافة. فالبعيد له بريق وإغراء ووعد، ويبدو بسيطاً وبلا مشاكل. ولذا ينبغي أن يكون ما تقدمه غير قابل للفهم. وإياك أن تجعله مألوفاً على نحو ثقيل الوطأة، بل أبقه سراباً من بعيد، يتراجع كلما اقترب نحوه المغفّل. ولا تكن مباشِراً أكثر من اللازم أبداً في وصفك للخيال ـ بل أَبْقِهِ غامضاً. وباعتبارك مزوراً للخيالات والأوهام، دع ضحيتك تقترب اقتراباً يكفي للرؤية والتعرض للإغراء، ولكن أَبْقِ الضحيةَ على مبعدة تكفي لجعله يستمر في أحلامه ورغباته.

صورة: القمر لا يمكن
الوصول إليه، وهو دائماً يغير
شكله، ويختفي ثم يعود للظهور.
ونحن ننظر إليه، ونتخيّل ونتعجب،
ونتساءل، ونتشوّق ـ وهو غير معروفٍ
لنا أبداً، بل إنه مستمر في استثارة
الأحلام. فلا تُقَدِّمْ ما هو واضح، بل
عِدْ بتقديم القمر.

الشاهد: الكذبة إغواء وفتنة، شيء مصنوع يمكن زخرفته حتى يتحول إلى خيال. ويمكن إدراجه في زيّ مفهوم صوفيّ. فالحقيقة باردة، واقع رصين، وليس استيعابها مريحاً جداً. أما الكذبة فهي مستساغة أكثر. إن أكثر الناس تعرضاً للاحتقار في العالم هو الشخص الذي يذكر الحقيقة دائماً، فلا يشطح بخياله قَطّ... لقد وَجَدْتُ أن التحليق مع الوهم مُرْبِحٌ ومثير للاهتمام أكثر بكثير من قول الحقيقة. *(جوزيف ويل، المعروف أيضاً بلقب «العلام الأصغر» 1875-1976).*

الانقلاب

إذا كان في الانفتاح على خيالات الجماهير سلطة، فإنه لا يخلو من خطرٍ كذلك. فالخيال يحتوي عادة على عنصر من اللعب. فالجمهور يدرك نصف إدراك أنه يتعرض لخدعة، غير أنه يبقي الحلم حياً على أية حال، مستذوقاً الإغراء والالتهاء المؤقت عن الأشياء اليومية العادية التي تقدمها. فابق الأمور خفيفة ـ وإياك أن تقترب من المكان الذي يُتَوَقَّعُ منك فيه أن تعطي نتائج من الناحية العملية. إذ أن ذلك المكان قد يثبت أنه خطر للغاية.

بعد أن استقر براغادينو في ميونيخ وجد أن البافاريين ذوي الأذهان المتزنة لديهم إيمان بالكيمياء أقل بكثير من إيمان البنادقة المزاجيين. فلم يكن يؤمن بها في الحقيقة سوى الدوق، لأنه كان بحاجة يائسة إليها

لإنقاذه من الورطة التي غرق فيها حتى صار بلا أمل. وعندما شرع براغادينو يمارس لعبته المعروفة من الانتظار، ويقبل الهدايا ويتوقع الصبر، غضب عامة الناس. فقد كان المال يُصْرَف ولا يعطي نتائج. وفي سنة 1592 طالب البافاريون بالعدالة، وفي آخر الأمر وجد براغادينو نفسه يتأرجح من حبل المشنقة.. لأنه وعد ولم يفِ بوعده، تماماً كما فعل في السابق.. غير أنه في هذه المرة أساء تقدير مدى احتمال مضيفيه وأثبت عَجْزُهُ عن تحقيق خيالهم أنه قاتل.

وشيء واحد أخير: إياك أن ترتكب خطأ التصور بأن الخيال هو وَهْمٌ دائماً. إنه بالتأكيد يتناقض مع الحقيقة، ولكن الحقيقة نفسها تكون أحياناً مُمَسْرَحَةً ومقدمةً بأسلوب معين يجعل الخيال يصبح رغبةً في الأشياء البسيطة. فالصورة التي أوجدها أبراهام لينكولن عن نفسه مثلاً كمحامٍ ريفي من إنتاج محلي له لحية جعله رئيسَ الرجل العادي.

وأوجد ب .ت. بارنوم تمثيلية ناجحة مع توم ثامْبْ، وهو قزم كان يرتدي أزياء يقلد بها القادة المشهورين من الماضي، مثل نابليون، ويسخر منهم على نحو شرير. فكان العرض يسرّ الجميع، صعوداً حتى الملكة فكتوريا، باقترابه من خيال ذلك العصر: كفى مشاهد من حياة حكام التاريخ المغرورين المزهوين، فالإنسان العادي يعرف أكثر من الجميع. فَعَكَسَ توم ثامب النمط المعهود للخيال الذي كان فيه الشيء الغريب وغير المعروف يصبح مثالياً. ولكن التمثيلية استمرت تحترم القانون، إذْ تحتها كان يكمن الخيال الزاعم أن الرجل البسيط لا مشاكل له، وهو أسعد من الأقوياء ذوي السلطة والأغنياء ذوي المال.

وقد مثّل كلٌّ من لينكولن وتوم ثَامْبْ (المعروف لدى العامة عندنا بلقب «عقلة الإصبع») دور الرجل العادي، مع الحرص على إبقاء مسافة بينهما وبينه، فإذا أتيح لك أن تلعب بهذا الخيال فعليك أن تحرص أيضاً على إبقاء مسافة، ولا تجعل شخصية الرجل العادي التي تلعبها مألوفة بإفراط، وإلاّ فإنها لن تبرز على أنها خيال.